نموذج ترخيص

أنا الطالب : رائد عوض أحمد الشبيبي أمنح الجامعة الأردنية و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

قصيدة المديح في الأندلس عصر بني الأحمر

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالب: رائد عوض أحمد الشبيبي

التوقيع:

التاريخ: ٢٥/٤/٢٠١٣

قصيدة المديح في الأندلس

عصر بني الأحمر

إعداد

رائد عوض أحمد الثبيتي

المشرف

الأستاذ الدكتور حمدي منصور

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

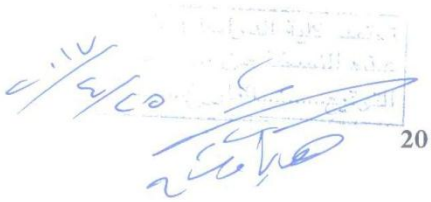

نسيان/ 2017

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الأطروحة بعنوان: (قصيدة المديح في الأندلس

عصر بني الأحمر) وأجيزت بتاريخ: 16/ 4 / 2017م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور حمدي محمود منصور، مشرفاً أستاذ الأدب القديم ونقده	.....
الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار، عضواً أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي	.....
الدكتورة نوال عبد الرحمن الشوابكة، عضواً أستاذ الأدب الأندلسي المساعد	.....
الأستاذ الدكتور عبد الحليم حسين الهروط، عضواً خارجياً أستاذ الأدب الأندلسي (جامعة العلوم الاسلامية العالمية)	.....

الإهداء

إلى من كانوا يضيئون لي الطريق

ويساندوني ويتنازلون عن حقوقهم

لإرضائي والعيش في هناء

أمي وأبي واخوتي

وإلى زوجتي وأولادي

أحبكم حبًّا لو مرّ على أرض قاحلة
لتفجرت منها ينابيع المحبة

الشكر والتقدير

بعد رحلة بحث و جهد و اجتهاد تكللت بإنجاز هذه الرسالة، أحمد ُالله عز وجل على النعمة التي منَّ بها عليّ فهو العلي القدير، كما لا يسعني إلا أن أخص بأسمى عبارات الشكر و التقدير الاستاذ الدكتور "حمدي منصور" لما قدمه لي من جهد و نصح و معرفة طيلة مدة إنجاز هذه الرسالة.

الفهرس

المحتويات	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
جدول المحتويات	هـ
الجداول	ح
الملخص	ط
الحياة السياسية	1
الحياة الاجتماعية	6
الحياة الثقافية	8
لمحة عن غرض المديح في الشعر العربي	11
الفصل الأول	
المدائح النبوية	19
بِنْيَةُ قصيدة المديح النبوي ومضامينها	21
مقدمة قصيدة المديح النبوي	21
مضامين المدحة النبوية	28
خاتمة قصيدة المديح النبوي	38
الفصل الثاني	
مدح الحكام والسلاطين	42
الهيكل البنائي للقصيدة المدحية	42
مضامين قصيدة مدح الخلفاء	43

تحليل نموذج من قصائد مدح الخلفاء	53
الفصل الثالث	
مدح الوزراء والقادة والأبطال والعلماء والأعيان	59
مدح الوزراء	59
مدح القادة والأبطال	63
مدح العلماء	65
مدح الأعيان	69
الفصل الرابع	
اولاً: الدراسة الفنية	74
اللغة والأسلوب	74
أسلوب الاعتراض	81
أسلوب الاستفهام	83
أسلوب النداء	84
أسلوب التفضيل	85
الصورة الاستعارية	87
الكناية	92
ثالثاً: الموسيقا والإيقاع	93
الإيقاع الخارجي	94
الإيقاع الداخلي	98
الخاتمة	103

المصادر	106
المراجع	112
الملخص باللغة الإنجليزية	115

الجداول

الجدول	رقم الصفحة
جدول رقم(1)	94
جدول رقم(2)	97

قصيدة المديح في الأندلس

عصر بني الأحمر

إعداد

رائد عوض أحمد الثبيتي

المشرف

الأستاذ الدكتور حمدي منصور

الملخص

حاولت هذه الرسالة دراسة أنواع القصيدة المدحية التي ظهرت في عصر بني الأحمر، وإبراز القيم المضمونية التي قدمتها، وتوقفت عند الخصائص الفنية التي برزت فيها، وبناء على ذلك فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وأربعة فصول، توقفنا في التمهيد عند الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في عصر بني الأحمر، ثم قدمت لمحة عامة عن غرض المديح في الشعر العربي.

أما فصول الرسالة، فقد بحثت في المدائح النبوية، و مديح الحكام والسلاطين والأمراء، و مديح القادة والأبطال والعمال والولاة، ثم توقفت عند الدراسة الفنية، ففصلت القول في اللغة والأسلوب، فبيّنت سمات المعجم المدحي، والأساليب البارزة فيه، ثم توقفت عند الصورة الشعرية فبّينا مصادرها وأنواعها وأثرها في تشكيل المعنى المدحي، وأخيراً درست الموسيقا في القصيدة المدحية بنوعيها: الموسيقا الداخلية والخارجية، وأثرها في تقديم المعاني المدحية. وختمت الرسالة بخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث.

التمهيد

أولاً: الحياة السياسية:

ظهرت دولة بني الأحمر في غمرة ظروف سياسية صعبة، فقد عمّت الأندلس الاضطرابات، وضياع العديد من المدن والحصون من أيدي العرب، وهذا ما جعل كثيراً من المسلمين يهاجرون إلى هذه المملكة التي كانت بعيدة عن متناول أيدي الإسبان.

وتمثل هذه الدولة آخر عهد المسلمين بالأندلس، وقد انحصر ملكها في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية جنوب نهر الوادي الكبير حتى شاطئ البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، وضمت ثلاث ولايات كبيرة هي ولاية غرناطة في الوسط، وولاية المرية، وولاية مالقة.[1] وقد استمدت هذه المملكة من موارده الطبيعية كالأنهار والوديان الخصبة أسباب القوة والرخاء بالإضافة إلى الجبال المحيطة بها التي جعلت منها قلعة منيعة يسهل الدفاع عنها.[2]

تم تأسيس دولة بني الأحمر (أو مملكة غرناطة) على يد محمد بن يوسف بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي المعروف بابن الأحمر، وقيل: إن تسميتهم ببني الأحمر جاءت بسبب نضارة وجه المؤسس واحمرار شعره أو شقرته، ويرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة، فهم بذلك أعرق البطون العربية.[3] ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا اللون الأحمر شعاراً لهم في قصورهم بالحمراء، وأعلامهم وقبابهم، وفي لون الورق الذي يكتبون فيه رسائلهم السلطانية.[4]

وأطلق على هذه المملكة الصغيرة اسم الأندلس الصغرى، واستطاعت أن تصمد في وجه التآمر الذي أحدق بها من كل صوب، وأبدت استبسالاً في مواجهة قوى الشمال الطامعة، مما أطال بعمرها، إذ دام حكم بني الأحمر غرناطة أكثر من قرنين ونصف القرن (635-897)، وكان عصر بني الأحمر من الناحية السياسية أسوأ عصر بالنسبة إلى العرب في الأندلس، إذ كثرت فيه

([1]) زكار، د. سهيل، كلاس، د. فايزة (2004)، تاريخ الأندلس، منشورات جامعة دمشق،423.

([2]) الدوسري، أحمد ثاني (2004)، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، المجمع الثقافي، أبو ظبي: 33- 34.

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، (ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974)، 92/2، وانظر: عنان، محمد عبد الله(1949)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مطبعة مصر، القاهرة، 27.

([4]) المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ت: 1041هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، 1/ 165.

الفتن والانقلابات ممّا أدّى إلى انحسار رقعة العرب على أرض الأندلس شيئاً فشيئاً أمام مد الإفرنجة، وأخيراً سقطت غرناطة بعد محاصرة شديدة من جيش فرديناند الخامس ملك آرغون، وجيش الملكة إيزابيل ملكة قشتالة وليون، وذلك بعد توقيع معاهدة بين هذين الملكين وأبي عبدالله الصغير آخر ملوك غرناطة، وذلك في شهر محرّم عام 897، قرر بموجبها مصير آخر حاضرة عربية في الأندلس.[1]

استطاع ابن الأحمر مؤسس الدولة بذكائهِ أن يعمل على تثبيت سلطانه، وحماية نفسهِ ضد الأخطار التي كانت تحيط به، فقد واجه الفتن الداخلية من خلال المهادنة التي كان يظهرها لخصومهِ السياسيين، وقد أشار ابن الخطيب إلى سياسة اتَّبعها ملوك بني الأحمر، وتتمثل في عدم الاعتماد على إخوانهم في عُدْوة المغرب، فقد لجأ ملوكهم إلى مهادنة الإسبان، وهذا ما فعله ابن الأحمر .فقد فاوض الإسبان، وحاول استعادة (ثغر) طريف من بني مَرْين فعسكر بقوّاتهِ في (مَالقَة)، وقدّم العون للنصارى من خلال إمدادهم بالمؤونة والجند، ولكنّ وعود ملوك قشتالة له لم تتحقق.[2] فعاد يخطب ودّ بني مرين مرّة أخرى، وأوفد ابن عمّه الرئيسَ أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيرَهُ أبا سلطان على رأس وفد من كبراء الأندلس، إليهم في طلب المودّة، وتجديد العهد، وتقرير المعذرة في شأن طريف، فابرموا العقد وأحكموا الصلح.[3] وربما يعود السبب في اتباعهم لهذه السياسة أنهم كانوا يدركون أن دولتهم صغيرة وضعيفة ولا قبل لها في مواجهة تعاظم قوة أعدائهم، وفي كل الأحوال أسهمت هذه السياسة المهادنة في إطالة عمر دولتهم.

وكان نظام الحكم عندهم وراثياً، يحكمون رعيتهم من خلاله حكمًا مطلقًا، معتمدين على أحقيتهم بحماية المسلمين، فهم من سلالة أنصار النبي محمد صلى الله عليه وسّلم، فكان السلطان يمسك بمقاليد الحكم بنفسهِ، ولا يترك لأحد غيرَهُ أن يدير شؤون البلاد. والثابت أن جميع حكامهم

([1]) دياب، د. علي(2003)، في الأدب العربي الأندلسي والمغربي، منشورات جامعة دمشق، 223- 224، عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، 185.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 52/2.

([3]) ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ت: تركي فرحان المصطفى .ط .1 :بيروت :دار إحياء التراث العربي، 1999، 7/ 211.

كانوا من سلالة بني الأحمر ووصل عددهم إلى اثنين وعشرين ملكًا.[1] وقد أطلقوا على أنفسهم لقب: (أمير المسلمين)[2] .

حكم مؤسس الدولة محمد بن يوسف بن الأحمر غرناطة بين عامي (635ه- 671هـ)،[3] ومن صفاته أنه كان (قوي الشخصية، عالي الهمة، واسع القدرات، يمتاز بقدر عال من الفطنة؛ كفاءته كبيرة في مجابهة الأحداث والتحديات والإفادة من الأخطار، وتحويل ذلك كله إلى منطلق للنصر)[4].

وقد قامت سياسته على محورين أساسيين، " أولهما: إقامة علاقة وطيدة مع بعض الدول الإسلامية الفتية تحسّباً للظروف؛ لكي يطلب العون منها إن اضطر إلى طلب العون، والمحور الثاني: ممالأة النصارى ومصانعتهم حتى يشتد عوده، ويثبت أركان دولته."[5] فعقد مع ملك قشتالة فرناندو الثالث معاهدة جيان عام (643هـ) ، وقدم إليه طاعته، وتم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وتحت طاعته، وأن يؤدي جزية سنوية مقدارها مئة وخمسون قطعة من الذهب، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي باعتباره من التابعين للعرش.[6]

وكان من أبرز السمات التي ميزت فترة حكم بني الأحمر سمتان غالبتان: هما الصراع المستمر مع النصارى من جهة، وكثرة الفتن والحروب الداخلية بين سلاطين بني الأحمر من جهة أخرى.

فابتداء من عام (640) في احتفال فخم، وبعد سقوط مُرْسِيَة، بدأ فرناندو الثالث يرى أن ابن الأحمر هو الخطر الذي يقف عائقًا أمام أطماعه في المدن الأندلسية، وخاصة الجنوبية منها،

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 28/1.

([2]) الحجي، عبد الرحمن علي(1976)، التاريخ السياسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط1، دار القلم، بيروت، 562.

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 142.

([4]) الذنون، عبد الحكيم، آفاق غرناطة، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1988، 39.

([5]) محاسنة، أحمد توفيق محمد (1997)، الحياة السياسية في دولة بني الأحمر، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 49.

([6]) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، 42-43.

لقربها من المملكة النصرانية، التي تحاول دائمًا التوسع والسيطرة على أكبر عدد ممكن من المدن الإسلامية وتفريغها من سكانها الأصليين .ابن الأحمر من جهته شعر بالخطر العظيم الذي يحيط به، والمهمة العظيمة التي ألقاها القدر على عاتقه ،وهي محاربة النصارى ,وتخليص تراث الوطن منهم، فالتقى بهم في أول معركة بعد تسلمه غرناطة وهي معركة حصلت في قلعة (حرتش)، تمكن القائد ابن الأحمر من قتل قائد النصارى(ردريجو الفونسو) الأخ غير الشرعي لفرناندو الثالث.[1] لكن النصارى لم يفوتوا هذه الفرصة لابن الأحمر، فقاموا باحتلال جيان وعاثوا فيها فسادًا، إضافة إلى احتلالهم حصن أرجونة وهو موطن بني نصر، ثم حاصروا غرناطة نفسها عام (642هـ)،[2] ولكن بعد تكرار العديد من الهجمات الصليبية على العديد من القلاع والحصون الأندلسية، أدرك ابن الأحمر أن السياسة تقتضي منه أن يحني رأسه للعاصفة فلم يجد بدًا من الاتفاق مع ملك قشتالة، بل كان عليه أيضًا أن يؤدي دورًا مهينًا ,وهو المشاركة بجملة من فرسانه لمساندة النصارى في حصارهم لإشبيلية حتى تم افتتاحها عام(646هـ)[3].

سار أغلب ملوك بني الأحمر على السياسة نفسها التي وضعها لهم مؤسس الدولة في التعامل مع أعدائهم، ولم تكن هذه السياسة ناجحة دوماً فكانت تتخللها مواجهات وحروب، فبعد وفاة ابن الأحمر مؤسس الدولة سنة (671هـ) خلفه ابنه محمد بن يوسف الملقب بالفقيه، وامتد حكمه حتى سنة (701هـ)،[4] فمتّن علاقته مع بني مرين، وتمكن بمساعدتهم من تحقيق انتصارات عدة على الأسبان.

أمّا الصراعات الداخلية بين ملوك بني الأحمر، فتظهر لنا بوضوح ابتداء من تولي أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع الحكم بعد وفاة والده محمد الفقيه بين عامي(701- 708

([1]) عنان، عبد الله، نهايه الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، 42.

([2]) عنان، عبد الله، نهايه الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، 42.

([3]) الجيوسي، سلمى الخضراء(1998)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت،128/1.

([4]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 142/1.

هـ)[1] الذي أعلن الثورة عليه أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه في سنة (708هـ) فاعتقل السلطان وأرغمه على التنازل عن العرش، وتربع أخوه نصر مكانه في الملك، ونفي السلطان المخلوع إلى حصن المُنَكّب، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ثم أعيد إلى غرناطة حيث توفي سنة(713 هـ).

والسؤال الذي طرحه كثير من المؤرخين عن أسباب بقاء دولة غرناطة في ظل هذه الظروف الصعبة التي نشأت فيها، لا سيما مع تعاظم القوة العسكرية والسياسية للإسبان اللتين تسمحان لهم بالقضاء على غرناطة.

وفي سياق الإجابة عن هذا السؤال ذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك يعود" إلى أن الإسبان استولوا على مساحات واسعة وشاسعة من الأراضي في وقت قصير نسبياً مما جعلهم عاجزين عن استيعاب تلك الأراضي من النواحي الإدارية والتنظيمية، بالإضافة إلى بعد هذه المناطق الرئيسين، وحصانتها واتصالها بالمغرب، لذلك قنع الاسبان في هذه الآونة ببقاء الدولة حتى تحين الفرصة المناسبة لابتلاعها" [2]. والحق يعضد هذا الرأي علاقة الاضطراب بين ملوك بني الأحمر والإسبان التي امتازت بعلاقات المهادنة حيناً، والحرب حيناً آخر.

كذلك أسهمت هجرات/هجرة الأعداد الكبيرة من المسلمين من الأراضي التي سقطت بيد الإسبان إلى غرناطة في انتعاش غرناطة اقتصادياً، وكان معظمهم يمتلك خبرات عظيمة في مجال الزراعة والصناعة، وكذلك في ميدان الخبرة العسكرية القتالية، فكان لهذا الرافد من الطاقات البشرية أكبر الأثر في توفير أسباب بقاء الدولة.[3] وكذلك استعاض بنو الأحمر عن معونة المرينين في بعض الأوقات بالاستعانة بأمراء منهم أخفقوا في الحصول على الحكم في بلدهم، فكانوا يأتون إلى غرناطة ليعملوا فيها ضداً ذوي امتيازات معينة، وأطلقت عليهم اسم الغزاة وعلى قائدهم شيخ الغزاة، ولم تلبث مشيخة الغزاة أن أصبحت منصباً مستقراً وبارزاً في دولة بني الأحمر.[4]

([1]) عنان ، نهاية الأندلس، 112.

([2]) زكار، د. سهيل، الكلاس، د. فاطمة، تاريخ الأندلس، 425.

([3]).زكار، د. سهيل، الكلاس، د. فاطمة، تاريخ الأندلس، 425.

([4]) زكار، د. سهيل، الكلاس، د. فاطمة، تاريخ الأندلس، 426.

وأيضاً حَصَّنَ بنو الأحمر جبهتهم الداخلية، بإحلال الوئام بين الحكام والمحكومين، ومما ساعدهم على ذلك ندرة الأقليات الدينية عندهم، واستطاعوا اجتذاب العواطف الدينية إليهم فأعطوا مناصب الإدارة العليا للفقهاء.[1]

و أخيراً سقطت غرناطة بعد محاصرة شديدة من جيش فرديناند الخامس ملك أرغون وجيش ملكة قشتالة وليون، سنة 897هـ، وكان أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر.[2]

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

ضمّ المجتمع الغرناطي مكونات بشرية متعددة، كما يشير ابن بطوطة، أهمها: العرب، والبربر، واليهود، والنصارى والمستعربون والمولدون والصقالبة... .[3] وقد أخذت غرناطة تموج منذ أواسط القرن السابع الهجري بالوافدين عليها من المسلمين في القواعد الأندلسية المسلوبة حتى قدر عدد سكانها بحوالي ستة ملايين نسمة.[4]

وقد كان المجتمع الغرناطي مجتمعاً طبقياً، وقد تصدرت طبقة الحكام هذا المجتمع، وتعد هذه الطبقة من أغنى الطبقات في المجتمع الغرناطي، وأكثرها ميلاً إلى الترف والملذات، والتسابق في بناء القصور والمتنزهات فامتلكوا العديد منها، وأقاموا فيها جلسات السّمر، وكانت خزائنهم مليئة بالأموال.[5]

وظهر ترف هذه الطبقة من خلال الجواري اللواتي كثرت في قصورهم، فمال هؤلاء إلى حياة المجون كالسلطان أبي الحسن النصري، الذي انهمك في شهواتهِ وملذاته والتمتع بالجواري.[6]

([1]) زكار، د. سهيل، الكلاس، د. فاطمة، تاريخ الأندلس، 426.

([2]) دياب، د. علي، في الأدب الأندلسي والمغربي، 224.

([3]) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله تحو: 779هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط4، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985: 768.

([4]) زكار، د. سهيل، والكلاس، د. فايزة: تاريخ الأندلس: 424، وانظر: عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: 55-70.

([5]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 28.

([6]) مؤلف مجهول، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر :ت :حسين مؤنس .ط1، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي،1991 57-58.

لكن المتتبع لأخبار هؤلاء الملوك لا يجدهم جميعاً لاهثين وراء الملذات راكضين وراء رغد العيش وجمع الأموال، بل يجد أن قسمًا منهم كان يميل إلى خشونة العيش والبعد عن الملذات، وهذا ما يبرز واضحًا في حياة محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الملّقب بالغالب بالله فقد كان "جنديًا، ثغريًا، شهمًا، عظيم التجلّد، رافضًا للدَّعة والراحة، يخصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجدّ في أموره"[1].

و برزت في المجتمع الغرناطي طبقة الوزراء والخاصة، وهي الطبقة التي تلي طبقة الحكام في المنزلة الاجتماعية، حيث أخذ الوزير مكانة مرموقة في دولة بني الأحمر وشارك في صنع القرار السياسي، وساعدت الظروف السياسية على آتساع مهام الوزير، فكان يتولى مهام السلطان أثناء غيابه، كما حدث لابن الخطيب حينما ناب عن أبي الحجاج أثناء حروبهِ، إذ ألقى إليه السلطان بسيفهِ وخاتمهِ، وسُمي (بذي الوزارتين) بجمعه بين الكتابة والوزارة.[2]

أمّا طبقة القضاة فهي من الطبقات المهمة التي برزت في الدولة النصرية،.حيث منصب القاضي السلطة الدينيّة، ولعلّ المسحة الدينيّة التي اتخذها حكام غرناطة، قد ساعدت على بروز طبقةٍ من القضاة لهم أثرٌ بالغ في كيان هذه الدولة والنظر في جميع الأشياء، مِن إقامة الحقوق، والنظر في المصالح.[3]

ومن القضاة المشهورين في غرناطة ابن الحاج البلفيقي الذي كان في عهد الغني بالله وكان التكّلم بالشعر أسهل شيء عليه، وله ديوانٌ كبيرٌ، يحتوي على ضروب الأدب)).[4]

ومن طبقات المجتمع الغرناطي المهمة طبقة العلماء والفقهاء، فقد كان العالم موضعاً للتكريم والاحترام، وللفقهاء خاصة حضور مميز في غرناطة، فهم يشاركون في الحكم ويصوغون القرارات، لما أخذ الحكام يهتمون ببعض رجال الدين والفقه، ويتبركون بهم.[5]

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 52.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، 40.

([3]) النَباهي، ابن الحسن، تاريخ قضاة الأندلس .ت :د. مريم قاسم الطويل .ط .1 بيروت، دار الكتب العلمية 1995،21.

([4]) النَباهي، ابن الحسن :تاريخ قضاة الأندلس: 204.

([5]) العنزي، سعد، التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)، إشراف: د. حمدي. منصور، الجامعة الأردنية، 2012، 29.

وقد اتّسم المجتمع الغرناطي بصفات أخلاقية وخَلْقية عامة ميزته، فهو مجتمع تغلب عليه الرقة وطاعة أمرائه والأخلاق الحسنة، كذلك فإنّ (صورهم حسنة وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة القصر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها غرب كثير وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبية في معاني المنازعات وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير).[1]

مال الغرناطيون إلى اللهو والمرح والتمتع بمباهج الحياة، وأغرموا بالغزل، وحضور حفلات الأنس والطرب، وقد وصف لسان الدين بن الخطيب أعيادهم بقوله: ((أعيادهم حسنة مائلة إلى الاقتصاد، والغناء بمدينتهم فاش حتى بالدكاكين التي تجمع صنائعها كثيراً من الأحداث)).[2]

ونعمت المرأة بقدر جيد من الحرية الاجتماعية التي سمحت لها بالمشاركة في ميادين الحياة كلها، واختلطت بالرجال في كثير من المناسبات العامة وأوقات الصلوات وحفلات الفروسية والزفاف وغيرها.[3]

ثالثاً: الحياة الثقافية:

ازدهرت الحياة الأدبية في عصر بني الأحمر ازدهاراً كبيراً؛ نتيجة لاهتمام ملوكهم وأمرائهم بالأدب والثقافة، كما ازدهرت العلوم الإسلامية من فقه وقراءات وتفسير وفلسفة وكثرت المؤلفات في شتى العلوم. فقد انضم كثير من العلماء والأدباء الذين سقطت بلادهم في يد النصارى إلى أهل غرناطة، ولاقى هؤلاء العلماء والأدباء التشجيع من بني الأحمر.[4] ولعل من أبرز الأمثلة على تقريب بني الأحمر للأدباء الشاعر الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي كان من أهل العلم والأدب والدين والخير، وقد زادت مصنفاته على الخمسين.[5]

وقد عرف عن كثير من ملوك بني الأحمر متابعتهم للتحصيل العلمي وتلقي العلوم فالأمير محمد الفقيه الذي حكم بين عامي (671- 701 هـ) لُقب بالفقيه لدراسته الفقه وشغفه به، وهو

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 134/1.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، 40.

([3]) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، 451.

([4]) الركابي، د. جودت (1966)، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، 58.

([5]) المّقري، أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض، تحقيق :مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939، 1/ 187-189.

الذي استقدم من مرسية كلّاً من محمد بن إبراهيم الأوسي ومحمد بن أحمد الرقوطي كي يدرسا في غرناطة العلوم الطبية والفلسفية.[1] وابن الأحمر الأمير أبو الوليد إسماعيل بن السلطان يوسف الثاني، هو صاحب كتاب (نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان) الذي ترجم فيه لأعلام عصره.[2]

وكان أوج ازدهار الحركة الثقافية والعلمية في دولة بني الأحمر في عصر السلطان أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل النصري (733- 755هـ) وولده السلطان محمد الغني بالله (755-793هـ)، فقد كان أبو الحجّاج نفسه عالماً أديباً شغوفاً بالفنون، وقد أنشأ لأول مرة في غرناطة مدرسة سمّاها المدرسة النصرية.[3]

وقد حافظ الشعراء في هذا العصر على الأغراض الشعرية المعروفة من وصف ومدح وهجاء وغيرها. وهي الأغراض التي كانت منتشرة عند سابقيهم من الشعراء، ولكننا نلحظ أنه قد ازدهار أغراض شعرية دون غيرها في هذا العصر مثل أشعار الحماسة ورثاء المدن والشعر الديني الذي كان يُلقى في المناسبات الدينية، أو عند الاستعداد للحروب ضد العدو المسيحي، لإيقاظ الهمم، والدعوة لنصرة الدين، والدفاع عن المسلمين، كما كانوا تارة يدعون للجهاد في سبيل الله، وأحياناً أخرى يبكون أسراهم بأرض العدو وما يلقونه من تعذيب هناك.[4]

وقد برزت أسماء أدبية مهمة في العصر الغرناطي، مثل ابن خَاتَمة الأنصاري، والوزير أبي عبد الله بم الحكيم اللَّخِمْي، والوزير أبي الحسن بن الجيَّاب، والوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زَمْرَك وعبد الكريم بن محمد القيسي وغيرهم كثير.[5]

وقد حرص أهل غرناطة على التميّز في العلوم والفنون، فالجاهل الذي لم يوفقهُ الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعةٍ، والعالم عندهم معظّمٌ من الخاصة والعامة، يُشار إليه، ويُحال عليه.

([1]) ضيف، شوقي (د.ت): تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات في الأندلس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 69.

([2]) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، 461.

([3]) ضيف، د. شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الطوائف والإمارات في الأندلس، 69.

([4]) المّقري، شهاب الدين أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، 277/1 .

([5]) الدوسري، أحمد ثاني، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، 256.

وكانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة . وكل العلوم لها عندهم حظٌ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإنَّ لها حظّاً عظيمًا عند خواصهم.[1]

وقد نبغ علماء في شتى أنواع العلوم في عصر بني الأحمر، ففي مجال علوم القرآن والتفسير برز اسم محمد النّمري الضرير،[2] و القاسم بن عبد الله بن الشّاطبي الأنصاري، وابن جزي الغرناطي، وله كتاب عن قضاة الأندلس،[3] ومن الذين نبغوا في اللغة والفقه، محمد بن أحمد بن محمد بن جزيّ الكلبي، وكان فقيها وحافظًا في فنون كثيرة .واشتغل بالتدريس بغرناطة، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم، ومن مؤلفاته: كتاب(التسهيل لعلوم التنزيل) و(الأنوار السَّنِيةُ في الألفاظ والكلمات السُّنيَّة).[4]

وفي مجال اللغة برزت أسماء من مثل: إبراهيم بن الزُّبَيْر الحافظ النَّحْوِي، وأبي حَيَّانٍ الغرناطي، وابن آجْرُوم محمد بن داوود الصَّنْهَاجِيَ.[5]

وفي مجال الطب اشتهر اسم يحيى بن هذيل، وفي مجال الصيدلة برز ابن الرُّومِيَّة الإشبيلي، الذي اهتم بدراسة النباتات الطبية، وتلميذه ابن البيطار صاحب كتاب: (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية)، وبرز في مجال الرياضيات والهندسة والفلك اسم علي بن محمد القَلَصادي.[6] وفي أدب الرحلات برز أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي الذي دون رحلته في كتاب سماه: (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق).[7]

([1]) المّقري، أحمد، نفح الطيب عند غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998، 1/ 181.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 19.

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين :الإحاطة في أخبار غرناطة: 4/ 217.

([4]) المّقري، أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 7/ 54.

([5]) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ت: 807، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت:56، وانظر: بهجت، منجد مصطفى(1988)، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، مديرية دار الكتب، الموصل، 466.

([6]) الداية، د. محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، 44.

([7]) الدوسري، أحمد ثاني، الحياة الاجتماعية في غرناطة، 256.

وما يمكن استنتاجه من هذا العرض أن تشجيع ملوك بني الأحمر للعلماء والأدباء أسهم في جعل غرناطة منارة للعلم والأدب، وكذلك أسهم في جذب العلماء إليها، وهذا ما يمكن ملاحظته وبروز علماء في كافة المجالات العلمية والثقافية.

لمحة عن غرض المديح في الشعر العربي

المديح هو فن الثناء و لغة التقدير، عرف عند العرب منذ القدم، و في تعريفه عند ابن منظور نقرأ: (المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، يقال: مدحته مُدحة واحدة، ومدحه ويمدحه، مدحاً ومِدْحة)[1] وهو ذكر للشمائل والمناقب، فنقول: مدحه مدحاً أثنى عليه بما له من الصفات.[2]

وعرّفه أبو البقاء الكفوي في الكليات، فقال: (المدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقاً، سواء أكان من الفواضل، أم من الفضائل وسواء أكان اختيارياً أم غير اختياري، ولا يكون إلا قبل النعمة، ولهذا لا يُقال: مدحت الله، إذ لا يتصور تقدم وصف الإنسان على نعمة الله بوجه من الوجوه لأن نفس الوجود نعمة من الله تعالى).[3]

وبناء على ذلك فالمديح عند الشعراء والنقاد غرض شعري ، يهدف إلى الشكر والثناء والتنويه بمناقب الممدوح، وهو صفة في الطبيعة البشرية، ولذلك يمكن القول: (إن الشعراء منذ أن عرفوا تلك الطبيعة في الإنسان اتخذوها سبباً إلى الأقوياء ووسيلة إلى أصحاب السلطان ليحتموا بقوتهم، ويحيوا في ظلال نعمتهم، وأولئك يمدون لهم في حبل العطاء ليشيعوا محامدهم في الناس فيمتد سلطانهم ويسبق ذكرهم).[4] ويذهب كثير من النقاد إلى أن القصيدة الجاهلية الأولى كادت لا تعرف فن المديح إلاّ على استحياء، يقول الدكتور وهب رومية واصفاً قصيدة المديح في هذا العصر: (ولم تبرز في ديوان أحد إذا استثنينا عَمْرَو بنَ قَمِيَئَة، والمُثَقِّبَ العَبْدِيَّ).[5]

([1]) ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدح).

([2]) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1973، مادة (مدح).

([3]) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: 1094هـ)، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط2، 1982، 4/ 277

([4]) طبانة، بدوي (1954)، قدامه بن جعفر والنقد الأدبي، مطبعة مخيمر، القاهرة، 281.

([5]) رومية، وهب (1997): بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي (المدح نموذجاً)، دار سعد الدين، دمشق، 28

وإذا نظرنا إلى المديح على أنه تكسب موجه لتمجيد الأفراد (فمن الصعب أن نعثر له على صدى في الشعر الجاهلي إلاّ في حدود ضيقة)[1]، أما إذا نظرنا إليه بالمفهوم الواسع سنجد أن الشعر الجاهلي كلّه مديح في حال عددنا تغني الشعراء بالفضائل الجماعية المتعارف عليها في التقاليد القبلية هي مديح لتلك القيم التي تحملها.[2] وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذه الناحية عندما قال: (كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وسادتها، وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجود متحدثين عن عزتها وإبائها، وشجاعة أبنائها، وما فيهم من فتك باعدائهم، وإكرام لضيوفهم، ورعاية لحقوق جيرانهم، وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم بمكرماتهم التي أدوها كأن يفتكوا أسيراً على نحو ما فعل خالدُ بنُ أثمَارٍ بابنِ أخت المُثَقّب العَبْدِيّ فكان جزاءه منه مدحة جيدة).[3]

ومن ذلك يمكن القول إن التغني بالفضائل والقيم والفخر بها هي كانت دافع الشاعر لقول المديح، ولم يعرف الشعر الجاهلي التكسب إلا في أواخره وتحديداً عند النابغة، وهو ما يشير إليه ابن رشيق عندما يقول: (كانت العرب لا تتكسب بالشعر حتى أتى النابغة فمدح الملوك، وقبل الصلة وخضع للنعمان بن المنذر... فسقطت منزلته وتكسب مالاً جسيماً ...).[4]

وتأثر الشعر عموماً بأغراضه المختلفة في عصر صدر الإسلام، بالقيم الجديدة، فأخذ الشعراء يتبارون في تناول القيم الدينية التي نادى بها الإسلام، (وأصبح ديدن القوم "إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"، فكل ما هو من مظاهر التقوى عد سبيلاً إلى المدح).[5]

كذلك فإنّ القصيدة المدحية في هذه المرحلة دخلت بقوة في معترك الأحداث السياسية، فكانت مدافعة عن الدين الجديد، تتصدى للشبهات والدعايات المضادة التي يشنها كفار قريش، وأتباعهم.[6] وقد توجه شعراء هذه المرحلة إلى مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، إبرازاً

([1]) العشماوي، د. أيمن محمد زكي(1983)، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها **الفني**، دار النهضة العربية، بيروت،ط1،ص 16.

([2]) العشماوي، د. أيمن محمد زكي(1983)، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، 16.

([3]) ضيف، د. شوقي (1965)، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 210.

([4]) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق (ت: 456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1972: 180/1.

([5]) رومية، د. وهب(1997)، بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي (المدح نموذجاً)، 111

([6])المرجع السابق.

لقيمه، ومآثره الحميدة السمحة، وكذلك توجهوا إلى مدح المسلمين معه، ومن أمثلة ذلك قول كعب بن مالك الأنصاري:

فِينا الرسُولُ شِهابٌ ثُمَّ يَتْبَعُهُ نُورٌ مُضيءٌ لهُ فَضْلٌ على الشُّهُب
الحَقُّ مَنْطِقُهُ والعَدْل سِيرَتُهُ فَمَنْ يُجبْهُ إليهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ [1]

وفي مدح المسلمين مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا سيما الأنصار، يقول كعب بن زهير:

مَن سَرَّهُ كَرَمُ الحَياةِ فَلا يَزَل في مِقنَبٍ مِن صالِحي الأنصار
تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً أحلامُهُم وَأكُفُّهم خَلَفٌ مِنَ الأمطار
وَالناظِرينَ بِأعيُنٍ مُحَمَرَّةٍ كَالجَمر غَير كَليلَةِ الإبصار
وَالذائِدينَ الناسَ عَن أديانِهم بِالمِشرَفِيِّ وَبِالقَنا الخَطّار
وَالباذِلينَ نُفوسَهُم لِنَبِّيهم يَومَ الهياجِ وَقُبَةِ الجَبّار [2]

ويمكن القول: إن قصيدة المدح الإسلامية لم تبتعد كثيراً عن القيم التي عبرت عنها المدحة الجاهلية، ولكن أضافت إليها ما جعلها تتناسب مع الحياة الإسلامية الجديدة، لتسير وفق الدين الجديد وما يحمله من قيم أخلاقية.

وفي العصر الأموي اصطبغت قصيدة المديح بصبغة سياسية نتيجة ظهور الجماعات والفرق الإسلامية ذات الطابع السياسي وارتباط ذلك بالصراع الحربي.[3] فقد (أدرك الخلفاء الأمويون دور الشعر في حياة العرب، وحاجة الشعراء إلى المال، فراحوا يشترون منهم المديح، ويذيعونه في الناس لتأييد سلطانهم، فكثرت قصائد المدح وانتشرت).[4]

(وأول ما يلفت النظر في قصيدة المدح الأموية تلك الملاءمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المدح القديم يعتمد عليها، والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم).[5] وقد دخلت هذه القصيدة عناصر سياسية جديدة (تتصل بسياسة الخلفاء والأمراء والولاة، وما يؤدونه للدولة من أعمال من أجل استتباب الأمن ونشر

([1]) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، 1966، 51.

([2]) شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله السكري، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، 27.

([3]) العشماوي، د. أيمن محمد زكي(1983): قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، 23.

([4]) ضيف، د. شوقي (1959)، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 134.

([5]) خليل، يوسف (1976)، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة، القاهرة، 164.

الطمأنينة بين الناس، والضرب على أيدي العصاة والمتمردين، ونحو ذلك مما تقوم عليه سياسة الدولة الداخلية، وهي معان جديدة تنتشر في شعر المدح في هذا العصر انتشاراً واسعاً). [1]

لقد ارتفع صوت السؤال والتكسب عالياً في قصيدة المدح في هذا العصر التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسلطة السياسية، و من مدائح هذا العصر، قول جرير في مدح يزيد بن عبد الملك بن مروان مشيداً بنسبه الشريف:

إنَّ القَديمَ وَأسلافاً تُعَدُّ لَكُم ... نِعمَ القَديمُ إذا ما عُدَّ وَالسَلَفُ

حَربٌ وَآلُ أبي العاصي بَنَوا لَكُمُ ... مَجداً تَلاداً وَبَعضُ المَجدِ مُطَّرَفُ

يا اِبنَ العَواتِكِ خَيرَ العالِمينَ أباً ... قَد كانَ يُدفِئُني مِن ريشِكُم كَنَفُ [2]

وقوله في مدح عامل هشام بن عبد الملك واسمه المهاجر بن عبد الله على اليمامة:

وَلَقَد حَكَمتَ فَكانَ حُكمُكَ مَقنَعاً ... وَخُلِقتَ زَينَ مَنابِرٍ وَمَساجِدِ

أعطاكَ رَبّي مِن جَزيلِ عَطائِهِ ... حَتّى رَضيتَ فَطالَ رَغمُ الحاسِدِ

تَرَكَ العُصاةَ أذِلَّةً في دينِهِ ... وَالمُعتَدينَ وَكُلَّ لِصٍّ مارِدِ

مُستَبصِرٍ فيها عَلى دينِ الهُدى ... أبشِر بِمَنزِلَةِ المُقيمِ الخالِدِ[3]

وقد حظي الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بكثير من قصائد المدح التي ركزت على عدله وإنصافه، ركّزت على شمائله وصفاته، كما نلحظ في قول كثير عزة:

فَكَم مِن يَتَامى بُوَّسٍ قَد جَبَرتَها ... وَأَلبَستَهَا مِن بَعدِ عُريٍ ثِيابَها

وَأرمَلَةٍ هَلكى ضعافٍ وَصَلتَها ... وَأسرى عُناةٍ قَد فَكَكتَ رِقَابَها

فَتىً سَادَ بِالمَعروفِ غَيرَ مُدافَعٍ ... كُهُولَ قُرَيشٍ كُلِّها وَشَبَابَها

أراهُم مَنارَاتِ الهُدى مُستَنيرَةً ... وَوافَقَ مِنها رُشدَها وَصَوابَها[4]

وإذا ما انتقلنا إلى العصر العباسي، فإننا سنلحظ أن الحياة الاجتماعية قد تغيرت تغيراً ملحوظاً عن الحياة في العصور السابقة، فقد تعددت الثقافات والمعارف واستقر الشعراء في بيوت ثابتة، وقد ارتفع صوت المال في قصيدة المدح العباسية، وكان الشعراء يتكسبون بشعرهم، فأضافوا إلى معاني المديح وصوره ما يلائم الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة، وتقاليد

([1]) خليل، يوسف (1976)، تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، 168.

([2]) ديوان جرير، محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، ط1، القاهرة، 389، المطرف، المستحدث.

([3]) ديوان جرير، 341.

([4]) ديوان كثير عزة، شرح مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1413 هـ، 28.

الخلافة في الحرب و السلم، فأضفوا على المعاني القديمة خيوطاً جديدة تناسب الحياة في ذلك العصر.[1]

وقد بالغ الشعراء في إضفاء الصفات على ممدوحيهم، وظهرت لغة التكسب صريحة واضحة في تلك القصائد، ومن ذلك ما نقرأه عند أبي نواس في مدحه للمهدي، فيصفه بأنه خير الورى، وأفضل من يمشي على الأرض، عندما يقول:

وَإذا المَطِيُّ بنا بَلَغنَ مُحَمَّداً فَظُهورُهُنَّ عَلى الرجال حَرامُ
قَرَّبنَنا مِن خَيرِ مَن وَطِئَ الحَصى فَلَها عَلَينا حُرمَةٌ وَذِمامُ
مَلِكٌ إذا عَلِقَت يَداكَ بِحَبلِهِ لا يَعتَريكَ البُؤسُ وَالإعدامُ[2]

وإذا ما تقدمنا بالزمن إلى عصر سيف الدولة فإننا سنجد أن هذا الرجل قد حظي بمدح كثير، وكان المتنبي من أبرز مادحيه، وقد سميت القصائد التي قالها فيه بالسيفيات، أبدع في وصف شجاعته في مواجهة الأعداء، ووصف أخلاقه، ومن ذلك قوله:

قَد زُرتُهُ وَسُيوفُ الهندِ مُغْمَدَةٌ وَقَد نَظَرتُ إلَيهِ وَالسُيوفُ دَمُ
فَكانَ أحسَنَ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ وَكانَ أحسَنَ ما في الأحسَنِ الشِيَمُ [3]

وإذا ما انتقلنا إلى الأندلس نجد أن الشعر بعمومه- في عصر الولاة- امتداد طبيعي للشعر في المشرق. ووفد على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده، وليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس.[4] وسارت قصيدة المديح الأندلسية في هذا العصر جنباً إلى جنب مع الأحداث السياسية، وأخذت شيئاً فشيئاً بالخروج عن نطاق أمراء قرطبة، والاتجاه إلى بعض الزعامات السياسية المناوئة التي استقلت ببعض أقاليم الأندلس. ومن هنا يمكن القول إن قصيدة المديح بدأت تؤسس لنشوء البلاطات الأدبية الإقليمية.[5]

([1]) الموسى، د. فيروز (2009): قصيدة المديح الأندلسية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 12-13.

([2]) ديوان أبي نواس، شرح محمود واصف، المطبعة العمومية، القاهرة، 1959، 323.

([3]) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه: مصطفى السقا، وآخرون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2010: 3/ 364.

([4]) هيكل، د. أحمد (1985) ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ط9، 64.

([5]) هيكل، د. أحمد (1985) ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، 137.

وفي عهد الخلافة الممتد بين 316-422هـ، ازدهرت الحياة السياسية، ولاسيما عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر- ت 350هـ، وقد كان لهذا الازدهار السياسي أثرٌ كبيرٌ في إحداث نهضة ثقافية شاملة رافقها ازدهار كبيرٌ للشعر والشعراء من خلال تكريمهم من الخلفاء والأمراء. وبرز في هذا العصر الاتجاه المحافظ الجديد الذي ظهر في الشرق رَدَّةَ فعلٍ على الاتجاه المحدث الذي تزعمه أبو نواس.[1] ولاشك أن غرض المديح كباقي الأغراض تأثر كثيراً تبعاً لذلك.

وفي عهد الحجابة اتجهت قصيدة المديح بقوة مع مجريات الحياة السياسية، تارة تمجد الحاكم وتتغنى بمآثرة من خلال (قيام الشعراء بين يدي الحاكم في الأعياد، والمناسبات العامة وأيام استقبال الوفود والسفارات الخارجية).[2]

ثم هي تارة أخرى ترافق الأمير، أو الخليفة في تحركاته العسكرية الخارجية، ونتاج هذه الأحداث قصائد مدحية ممزوجة بوصف المعارك الحربية،[3] والإشادة بالانتصار الذي يحققه الممدوح، والدارس للمدائح الأندلسية يرى أنَّ معظمها موجّه إلى الأمراء والملوك، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان :جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادَّة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والشجاعة وما أشبه .أمّا الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعدّ نصرًا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية.[4]

وإذا ما توقفنا عند مثال شعري بارز على قصيدة المديح الأندلسية ، يبرز لنا المعتمد بن عباد(ت: 488) وكان من الملوك الفضلاء والأجواد الاسخياء وقد اعتنى كثيراً بالشعر والشعراء، وقد جادت عليه قرائح الشعراء اعترافاً منهم بفضله، وبغية إحراز المكانة الرفيعة، فمدحه ابن زيدون (ت: 463) مشيداً بأمجاده التي تتردد على مسامع الناس بقوله:

---

(1) هيكل، د. أحمد (1985)، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، 194.

([2]) عباس، د. إحسان(1969)، تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 93.

([3]) عباس، د. إحسان(1969)، تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة-، 93.

([4]) عتيق، د. عبد العزيز (1976)، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 185.

يا أَيُّها المَلِكُ الَّذي عَلياؤُهُ مَثَلٌ تَناقَلُهُ اللَيالي سائِرُ
يا مَن لِبَرقِ البِشرِ مِنهُ تَهَلُّلٌ ما شيمَ إِلّا اِنهَلَّ جودٌ هامِرُ
أَنتَ اِبنُ مَن مَجدَ المُلوكَ فَإِن يَكُن لِلمَجدِ عَينٌ فَهُوَ مِنها ناظِرُ
مَلِكٌ أَغَرُّ اِزدانَتِ الدُنيا بِهِ وَأَعَزَّ دينَ اللَهِ مِنهُ ناصِرُ[1]

وتلت ذلك حدود جديدة أدركت مداراتها قصيدة المديح الأندلسية في عصر بني الأحمر بما جعلها تشكل علامة بارزة في ذاك العصر وهذا ما ستتناوله بالتفصيل هذه الرسالة.

(1) ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1980: 509.

الفصل الأول

المدائح النبوية

المدائح النبوية ترتفع بالشعر، إلى عالم سامٍ بعيد عن الغايات الدنيوية، عالم يعجز فيه القول عن مداناة قامة الممدوح وفضائله، إنه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه عزّ وجلّ: (وإنّكَ لعلى خُلقٍ عظيم)،[1] لذلك تميز هذا النوع من المديح عن غيره من المدائح بما تضمّنه من مضامين ومعانٍ، فقد كان تقرّباً وتوسّلاً ورغبة في طلب الشفاعة من الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلّم.

وقد ظهرت قصيدة المدح النبوي مع بدايات الدعوة وكانت في طورها الأول دفاعاً عن الرسول (ص) وإعلاء لقيم الإسلام وتعاليمه ، وتناول مدح الرسول(ص) شعراء كثر من أمثال حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة. ولا يعدّ مديح الرسول من باب الرثاء على الرغم من أنه قيل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم (لأن الرثاء يقصد به إعلان التحزن والتفجع على حين لا يُراد بالمدائح النبوية إلا التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين والثناء على شمائل الرسول[2]).

واستمرت قصيدة المديح النبوي إلى ما بعد وفاتِهِ عليه الصلاة والسلام ونضجت، وقد انتشرت في الأندلس انتشاراً واسعاً ، و تعاظمت أهميتها الروحية نتيجة الوضع السياسي الذي كثرت فيه الفتن والاضطرابات، (ولعلَّ بيئة لم تكثر من المدائح النبوية كما أكثرت الأندلس، وخاصة في عصورها الأخيرة، لأنَّها كانت تتخذ منها مددًا روحيًا في مقاومة الإسبان المسيحيين، وكان الشَّعب يكثر من حفظها وتلاوتها وتلاوة الأناشيد الصوفية، وأشعار الزهد.)[3]

وكلَّما ازدادت هذه الفتن والقلاقل، ازداد التعلُّق الروحي بالرسول (ص) و الانشداد إلى عالمٍ نقي صافٍ يمثله الدين الإسلامي في وقت وجوده عليه الصلاة والسلام، ولذا وجدنا المدائح تزدهر مع كثرة تساقط المدن والدويلات في الأندلس، (وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذي أصبحت فيه الأندلس دولا وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس)[4] وقد ازدهرت قصيدة المديح في الأندلس أيضًا، في عهد الموحدين، (وكان وراء ازدهار الشعر الديني بواعث عديدة، لعلَّ أهمها يكمن في تلك المحن

([1]) القلم: 4.

([2]) مبارك، د. زكي (1935): المدائح النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة: 17.

([3]) ضيف، د. شوقي(1977): الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، مصر: 192.

([4]) ضيف ، د. شوقي(1989): عصر الدول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، مصر: 370.

السياسية والاجتماعية التي تعرضت لها الأندلس في هذا العصر، بالإضافة إلى الطابع الديني الذي كانت عليه دولة الموحدين والذي أسهم في نمو بعض الموضوعاتِ الدينية كالزهد.)[1] وكان المديح النبوي بما فيه من انشدادٍ روحي وتعّلق بالرسول الكريم(ص) يقوى في عصر بني الأحمر ومن سبقهم ، مع قوة الخطر النصراني والفتن والاضطرابات الداخلية (إذ اتخذه الشُّعراء الأندلسيون أداَة للاستغاثةِ والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم)[2]، يقول لسان الدين بن الخطيب معرضاً بحال الأندلس:

ماذا يكونُ جوابكم لنبيّكم و طريقُ هذا العذرِ غيرُ ممّهدِ
إن قال لمْ فرّطتمُ في أمّتي و تركتموهم للعدوّ المعتدي
تالله لو أنّ العقوبة لم تُخِفْ لكفى الحيَا من وجه ذاك السّيدِ[3]

لو كانت قصيدةِ المدح النبوي في عصر بني الأحمر، تنظم في مناسباتٍ معينة كالموالد النبوية التي كان يقيمها بعض الخلفاء، كذلك قد ينظمها الشاعر لأسبابه الخاصة المتعّلقة بدواخل نفسه للتعبير عن حبه للرسول (ص)، وقد اتسم هذا الشعر بالطهر والصدق في كل مناسباته التي قيل فيها، (لأن كل المثيرات التي استفزت الشاعر ودفعته إلى ترجمة أحاسيسه، إنَّما هي مثيرات تغلفها الجلالة والرهبة، وتحيط بها هالة من الإشعاعات القدسية السامية وهنا لا يجد النفاقُ أيَّ مساحة أو مجالٍ للظهور).[4]

انتشرت المدائح النبوية في عصر بني الأحمر، وساعد على ذلك طبيعة نظام الحكم الذي ساد مملكتهم ، فالحرص الذي أبداه هؤلاء في المحافظة على المظاهر الدينية بوصفهم حماة لهذا الدين، جعلهم يحرصون على إحياء المناسبات الدينية، ولاسيما الاحتفال بالمولد النبوي .وكان يحتفل بهذه الذكرى .فيجلس الملوك كالغني بالله في صدر الإيوان، ويتجمع حولهم عِلِيَّة القوم و الشعراء الذين نظموا قصائدهم المولدية لإلقائها في البلاط.[5] وقد غدا الاحتفال بالمولد النبوي عيداً ثالثاً يُضاف إلى عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم فاقهما لدى الأندلسيين الذين كانوا يجتمعون فيه بالمسجد والأماكن العامة والخاصة وقصور الملوك، لتلاوة القرآن الكريم وسماع السيرة

([1]) عيسى، د. فوزي (2006)، في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 79.

([2]) ضيف ، د. شوقي(1989)، عصر الدول والإمارات، 371.

([3]) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، 6/ 166.

([4]) محجوب، سعاد(2004)، وصف البيت الحرام في الأدب العربي، المجمع الثقافي، دبي، 238.

([5]) الحمصي، أحمد(1985)، ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 128.

النبوية الشريفة وإنشاد قصائد المديح، ثم يختمون كل قصيدة نبوية بمدح للملك الذي قيلت تحت رعايته.[1]

أولاً: بِنْيَةُ قصيدة المديح النبوي ومضامينها:

تألفت بِنْيَةُ قصيدة المديح النبوي من مقدمة بأنواعها المختلفة (نسيب ، طلل،..)، ووصف للرحلة، والغرض الأساسي، أي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تضمنه من مضامين وقيم، ثم الخاتمة التي ينهي بها الشاعر مدحته النبوية. وفيما يلي تفصيل لذلك:

2-1: مقدمة قصيدة المديح النبوي:

تنوعت مقدمة قصيدة المديح النبوي عند الشعراء الأندلسيين في عصر بني الأحمر، ولعل أكثرها استخداماً عند الشعراء هي المقدمة الغزلية والمقدمة الطللية، وهم بذلك ساروا على نهج سلفهم من شعراء المشرق والأندلس، وقد فسر ابن قتيبة سبب المقدمة المتنوعة في بدايات القصائد بقوله: (وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما يبدأ فيه بذكر الديار، والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الرَّبْعَ واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا ألم الوجد، ، وشدة الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب...)[2].

وقد سار الشعراء في عصر بني الأحمر على نهج الشعراء المشارقة في افتتاح مدائحهم النبوية بالمقدمات المتنوعة (غزلية وطللية وغيرها)، وتعدّ المقدمات الغزلية الأوسع انتشاراً بين تلك المقدمات، وقد تميزت بسمات خاصة (فالغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل، ويتشبب مطرباً بذكر سَلْعَ وَرَامَة، وسَفْح العقيق، والعَذِيْب...)[3]، فجاءت معبرة عن أحزان عاشق صب أضناه الشوق والبعد عن الحبيبة، فأخذ يذرف الدموع وبث شكواه إلى الطبيعة ممثلة بالليل، ومن النماذج المعبرة عن ذلك قول أبي القاسم محمد بن يحيى الغساني البُرْجِي الغرناطي:

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973، 124- 125.

([2]) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قمحية، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985، 27.

([3]) مبارك، د. زكي (1935)، المدائح النبوية، 36.

أصَغْى إلى الوَجْد لمَّا جَدَّ عَاتِبُهُ صَبٌّ لهُ شُغْل عَمَّن يُعاتِبُه
لم يعط للصبر من بعد الفراق يداً فضل من ظل إرشاداً يخاطبه
لولا النوى لم يبت حران مكتئباً يغالب الوجد كتماً وهو غالبه
يستودع الليل أسرار الغرام وما تمليه أشجانه فالدمع كاتبه[1]

(وتبقى الحبيبة التي يطمح الشاعر للقياها من غير لحم ودم، وإنما الحبيبة الرمز، هي البقاع المقدسة هي كلُّ أمانيه في الدنيا ، ولو جاد له دهره بها ساعة لتحقَّقت تلك الأماني وما هي إلاَّ تطلع لزيارة قبر الرسول(ص))[2] لذلك يجعل الشاعر مقدمته الغزلية مناسبة لصدر مدحته النبوية، فيجعل من حنينه إلى الأماكن التي درج الشعراء العذريون على ذكرها وذرف الدموع الغزيرة على أحبته فيها وسيلة للوصول إلى المديح النبوي وهذا ما نلحظه في ذكر البرجي كثيراً من تلك المعاني، ففي تتمة المقدمة الطللية يقول:

لله عصر بشرقي الحمى سمحت بالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه
يا جيرة أودعوا إذ ودعوا حرقاً يصلى بها من صميم القلب ذائبه
يا هل ترى تجمع الأيام ألفتنا كعهدنا أو يرد القلب سالبه
و يا أهَيْلَ ودَادِي، والنَّوى قُذفُ والقُرْبُ قد أبهمت دُوني مَذاهِبه
و يا ربوع الحمى لا زلت ناعمة يبكي عهودك مضنى الجسم شاحبه[3]

ثم يربط الشاعر بين حبه لتلك الديار وحنينه إليها، وبين حبه للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون الانتقال من النسيب إلى الغرض الأساسي، مما يجعل النسيب مقدمة في الحب والشوق مناسبة لغرض المديح النبوي الذي يجعل من الشوق والحب للنبي (ص) هدفه الأساسي.

وربما تعدّ المحبوبة في هذه المقدمات رمزاً يختزل أشواق الشاعر إلى النبي صلوات الله عليه، إذ إننا نلمح أن الشعراء قد قرنوا تلك المقدمة بروح التدين ، وهذا ما نلحظه في قول عبد العزيز بن يشت الغرناطي:

القلب يعشق والمدامع تنطق برح الخفاء فكل عضو منطق
إن كنت أكتم ما أكن من الجوى فشحوب لوني في الغرام مصدق

([1]) المقري التلمساني، المقري، نفح الطيب، 6/ 70.

([2]) الحسيني، قاسم (1986)، الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، موضوعاته وخصائصه، الدار العالمية للكتاب، المغرب وبيروت، ط1، 73.

([3]) المقري التلمساني، نفح الطيب، 6/ 70.

وتذللي عند اللقى وتملقي إن المحب إذا دنا يتملق
فلكم سرت عن الوجود محبتي والدمع يفضح ما يسر المنطق
ولكم أموه بالطلول وبالكنى وأخوض بحر الكتم وهو الأليق
ظهر الحبيب فلست أبصر غيره فبكل مرئي أرى يتحقق
ما في الوجود تكثرٌ لمكثرٍ إنّ المكثر بالأباطل يقرأ
فمتى نظرت فأنت موضع نظرتي ومتى نطقتُ فما بغيرك أنطق[1]

أن هذه المقدمة وأمثالها تسير وفق نهج الغزل العفيف، وتتسم بالحشمة والوقار، وتتسامى بالصفات الحسية للمرأة، فلا تخدش أذن متلقيها، فلا ذكر فيها لجمال الجسد الأنثوي ، أو لما يشير إليه، بل هي تحفل بالتعبير عن مشاعر الشوق والحنين، والحب الصادق، التي يمكن أن يُفهم منها دلالة رمزية على الشوق والحنين للأماكن المقدسة.

ولعل ما يؤكد تلك الطبيعة الرمزية لتلك المقدمات الغزلية أنه غالباً ما ترد أسماء لنساء تردد ذكرها في الشعر العربي مثل زينب وليلى وسعدى ودعد وغيرها ، وهي أسماء ليس لها وجود في واقع حياة الشاعر، ووجودها في معرض القصيدة وجود شعري ورمزي، حيث يشكل معجم الأسماء في مقدمة قصيدة المديح النبوي فضاء واسعاً لتوظيف هذه الأسماء في خدمة الدلالة التي يريدها الشاعر، وهو ما يمكن ملاحظته من قول ابن الخطيب:

لي اللهُ كمْ أهْذي بنجْدٍ وهاجِرٍ وأكْني بدَعْدٍ في غَرامي أو سُعْدى
وما هي إلا زَفْرَةٌ هاجَها الجَوى وأبْدى بها تذْكارَ يثْربَ ما أبْدى[2]

بذلك فإن الشاعر يستثمر ما في الأسماء من طاقة إيحائية للتعبير عن حبه للنبي والأماكن المقدّسة.

وإذا ما انتقلنا إلى المقدمات الطللية في مقدمة قصيدة المديح النبوي، فسنجد أنها تشكّل بعداً نفسياً عند الشعراء، يكني بها الشعراء عما يقاسونه من معاناة البعد عن الديار المقدّسة ،ولم يخرج الشعراء في تلك المقدمات عن المشهد الطللي الموروث، فقد كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها، والوجد لفراق ساكنيها، ولعل وقوع الشعراء تحت تأثير بناء القصيدة الموروثة هو الذي هيّأ لهم رسم هذا المشهد من خلال تصوير الشعراء لقسوة الزمن والبيئة، التي

([1]) المقري التلمساني، نفح الطيب، 115/6.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، تحقيق: محمد شريف قاهر، الجزائر، 1973، 473.

يكني بها الشعراء عما يقاسونه من معاناة البعد عن الديار المقدّسة؛ إذْ إنّ استحضار المعاني الطللية الرامزة إلى المعاناة هو من أكثر المعاني التصاقاً بالحالة العاطفية للنفس البشرية .

ومن هذه الأنماط، الوقوف على الطلل، والتعبير عن حنين الشاعر، ومدى ما يرى فيه تأسياً لنفسه، يرفد ذلك باستحضار صورة الظعن وحادي الإبل، الذي يريح بنغمات صوته نفس الشاعر من الأوجاع وألم البعاد، قال لسان الدين بن الخطيب:

بحقّ الهوى يا حداة الحمول ... قفوها قليلاً بتلك الطلول
معاهد مرّت عليها السحاب ... ببرق خفوق ودمع همول
أحنّ إليها حنين العشار ... وأبكي عليها بشجو طويل
فيا سعد عرّج عليها الركاب ... ففيها لقلبي شفاء الغليل
سقاها من المزن صوب الغمام ... وحيّا بعرف النسيم العليل
ولا زال فيها يجرّ الذيول ... فيحيي النفوس بجرّ الذيول
لئن حلت يا ربع عن عهدنا ... فعهد الهوى ليس بالمستحيل[1]

فالشاعر يبدأ بوصف مشهد الرحيل لبيان شدّة لوعته وقلّة حيلته في مرافقة ركب الحجيج، ثم أضاف إلى ذلك وصف حنين الإبل وصوت البكاء و صوت حداة الإبل، وهم سائرون إلى حيث مهبط الوحي ومثوى الرسول الكريم، و ذلك كله يتطلب من الشاعر التعريج على الديار؛ ليعلّل بها نفسه الظامئة لزيارتها، فإنه يستشعر اللذة في قسوة الرحلة ومعاناتها.

وسار الشعراء في المقدمة الطللية على النسق الشعري الذي بُنيت عليه القصيدة العربية الموروثة، فقد تضمنت تلك المقدمات المعاني المشهورة عند الوقوف على الطلل، مثل سؤال الطلل ووصف عجمته، ووصف طول الليل وما يحمله من هم يثقل على النفس حمله، وهذا ما يمكن أن نلحظه في قول أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر:

وأعربتُ في عجم الطلول عن الهوى ... بأنفاسِ نفسٍ قد أُثير أوارها
فعيّتْ جواباً والجوى بي مقيّدٌ ... عليها وأشجاني أُقرّ قرارها
تطاولَ ليلي في قصير منامه ... فعيني أنيلتْ بالسهاد غرارُها
وأشغلتُ نفسي بامتداح محمّدٍ ... وتلك معالٍ قد أُقيمَ منارُها

ومن الظواهر اللافتة في مقدمات قصيدة المدح النبوية افتتاح القصائد أحياناً بوصف الرحلة إلى الديار المقدسة، فهي رحلة من نوع خاص ليست كبقية الرحلات لأن فيها تخلُّصًا من

([1]) نفح الطيب، 7/ 290.

همومِ الدنيا إلى نعيم الآخرة، وسعيًا إلى الجنَّةِ وفوزًا بزيارة قبر الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاةِ وأتم التسليم، ولذا زيّن الشعراء مدائحهم النبوية بوصف تلك الرحلة الروحية إلى تلك الأماكن التي قد يكون الشاعر الأندلسي قام بها، أو تخيلها أو ودع أصحابها. ويكثر في الرحلة الحجازية وصف خفَّة المطايا وسرعتها، وكثيرًا ما كان الشاعر يجمع في الوصف الروحي بينه وبين الرواحل لأنَّه كما تقول سعاد محجوب (توحدت مهيجات الشوق والحنين بينهما، فما استفز الشاعر وألهب عواطفه وأثار كوامن أشواقه كان له الأثر نفسه في الناقة، ومما لا شك فيه أن الشَّاعر كان يعبر عما يجيش بدواخله على لسان حال ناقته)[1]

ولذلك وصف الشعراء خفَّة الرواحل التي تحمل الركب، وهذا ما يمكن ملاحظته عند ابن الجيّاب الغرناطي الذي يقول:

لمن المطايا في السراب سوابحا	تفلي الفلاة غوادياً وروايحا
عوجاً كأمثال اللّقي ضوامرا	يرمين في الآفاق مرمى نازحا
أو كالسحابِ تسيرُ مثقلة بما	حملته من سُقيا البطاح دوالحا[2]

وهنا نرى أن الرحلة النبوية لم تعد رحلة مطايا وإبل تضرب البيد، وإنما أصبحت رحلة روح تنتقل من عالم الذنوب المادي إلى عالم الصفاء الروحي النقي ، من هنا يرتفع صوت الحادي بذكر الرسول (ص) الذي يجعل العيس تغذُّ السير يسبقها شوقها إليه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يقول ابن الجياب:

وإذا حَدَا الحادي بذكرِ المصطفى	أذرُوا في الأكوارِ دمعاً سابحا
عيسٌ تهادى بالمحبيّن الألى	ركبوا من العزم المصمِّم جامحا
طارت بهم أشواقُهم سباقة	فتركنَ أعلامَ المطيِّ رَوَازحا [3]

وقد اتخذت الرحلة النبوية مسارًا روحيًا ساميًا بعيدًا، فترفَّع الشعر عن ذكر ما كان يكابده شاعره في الرحلةِ لملكٍ أو غيره، لأن القدسية التي تتصف بها هذه الرحلة، جعلت

([1]) محجوب، سعاد(2004)، وصف البيت الحرام في الأدب العربي،332.

([2])ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط2، 1973: 130/4، تفلي :تقطع تطلب ما فيها، انظر: اللّسان، مادة:(فلا)،اللقي :الملقى على الأرض المطروح، انظر، اللّسان، مادة: (لقا)، الدواع :السحب تدلح في مسيرها من كثرةِ مائها فتثقل وسحابة دلوح أو دالح، مثقلة بالماء الكثير، انظر اللسان ، مادة (دلج).

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة: 4/ 130، أذروا :صبوا دموعهم، انظر :اللّسان، مادة: (ذرا)، الأكوار جمع كور، وهو الرحل، انظر :اللّسان، مادة: (كور)، جامحًا :مسرعًا، يقال فرس جموح أي سريع نشيط، انظر :اللّسان، مادة: (جمح).

القصائد النبوية التي تذكر المطايا والرواحل متضمنة معاني الانتشاء وهو انتشاء روحي، يسمو بها إلى عالمٍ بعيدٍ عن ملذاتِ الدنيا ونقائصها، وهذا ما يمكن أن نلحظه في قول ابن فركون من قصيدةِ مدحٍ نبوية:

وركْبٍ مُفَدّىً بالنّفوس أمالُهُمْ حثيثُ سُراهُمْ لا الرّحيقُ المفَدَّمُ [1]

وقد اتخذ وصف هذا الانتشاء الروحي في الرحلةِ الحجازية صورا عدة حملت معاني الذكر، والشوق للرسول (ص)، وكثر هذا الوصف، ومن ذلك قصيدة مدح نبوية لابن زمرك، وصف فيها رحيل (ركب الحجاز)، الذين جعلهم يترنَّحون فوق الرواحل ترنُّح السكارى، انتشاء بالزيارةِ وشوقًا للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال:

مثلُ القسيِّ ضوامرٌ قد أُرسلتْ يَدْرَعْنَ عرض البيد ميلاً ميلا
مترنحين على الرمال كأنما عاطينُ من فرط الكلال شَمُولا
إن يلتبسْ عَلَمُ الطريق عليهم جعلوا التشوّق للرسول دليلا [2]

(وقد اعتاد وفد الحجيج السفر إلى بيت الله الحرام على الرواحل والمطايا المحسوسة، ولكن قد يرحلون في بعض الأحيان ويمتطون غير ما تعارف عليه الناس واعتادوه فمنهم من يمتطي أشواقه المتأججة وجوانحه، وبذا ينتقل إلى عالم اللامحسوس، واللامرئي في هذه الرحلة الطويلة التي تحفُّها الأنوار القدسية.)[3] يقول لسان الدين ابن الخطيب:

جادَ الحِمى بَعْدِي وأجْراع الحِمَى جَوْدٌ تَكِلُّ بهِ مُتونُ الرّيح
هُنّ المَنازلُ ما فُؤادي بعْدَها سالٍ ولا وَجْدي بِها بمُريح
حَسْبي وَلوعاً أنْ أزورَ بفِكْرَتي زُوّارَها والجِسْمُ رَهْنُ نُزوح
فأبُثُّ فِيها منْ حَديثِ صَبابَتي وأحُثُّ فِيها منْ جَناح جُنوحي[4]

([1]) ديوان ابن فركون، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة، المغربية، المغرب،ط1، 1987: 323، الرحيق :من أسماء الخمر، وهو من أعتقها وأفضلها، انظر :اللّسان، مادة: (رحق)، المفدم :الإبريق الذي يسقى منه الشرب، انظر :اللّسان، مادة: (فدم)،

(1) ديوان ابن زمرك، تحقيق: د .محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م. 476، الكمال :التمام، انظر :اللّسان، مادة(كمل)،الشمول :الخمر الباردة، انظر :اللّسان، مادة: (شمل)

([3]) محجوب، سعاد(2004)، وصف البيت الحرام في الأدب العربي، 303.

([4]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، صنعه وحققه وقدم له: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1989: 242/1، الجناح :ما يخفق به الطائر في طيرانه، وجنح الرجل إذا مال، الجنوح :من الجناح، وهو ما تحمل من الهم والأذى والإثم. انظر :اللّسان، مادة: (جنح).

وفي القصيدة يصف ابن الخطيب نفسًا من قبضة مظلمة كثرت همومها، وذنوبها، فصور ليلا شديد السواد، قليل الكواكب، كالبحر المتلاطم الأمواج، قال:

ودُجُنّةٍ كادَتْ تُضِلُّ بيَ السُّرَى لوْلا وَميضَا بارقٍ وصَفيح
رَعَشَتْ كَواكِبُ جوِّها فكأنّها وَرِقٌ تُقَلِّبُها بَنانُ شَحيح
صابَرْتُ مِنْها لُجّةً مهْما ارْتمَتْ وطَمَتْ رَمَيْتُ عُبابَها بسَبوح[1]

ونلاحظ في الصورة أن الظلمة التي وصفها لم تكن مطبقة تمام الإطباق فهناك وميض بارقٍ، وصفيح وأراد به السيف، وهناك كواكب – وإن كانت قليلة جدًا تقلبها بنان شحيح – وهناك أيضًا السبوح، الذي قد يكون أراد به الفرس، وأنه قطع على ظهره هذا الظلام إلى غاية سيذكرها فيما بعد، أو أراد به التسبيح لأن الرحلة رحلة نفسٍ مذنبةٍ فوصف أنه قطع الليل بتسبيح الله وتنزيهه، والعودة عن الذنب بكثرةِ ذكره سبحانه، وقد ذكر التسبيح أو السبوح، إضافة لقليل لمعانٍ في البرق والكواكب، لأنه أراد بصيص الأمل والنُّور في القرب لله تعالى عن طريق مدح رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهي الغاية التي قد يكون كّنى بالفرس السابح عنها، ولذلك قال بعد ذلك:

شِمْتُ المُنى وحَمِدْتُ إدْلاجَ السُّرَى وزَجَرْتُ للآمالِ كُلَّ سَنيح
فكأنّما لَيْلي نَسيبُ قَصيدَتي والصُّبْحُ فيهِ تخَلُّصٌ لمَديحي
لمّا حططْتُ لخَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثّرَى بعِنانِ كُلِّ مولّدٍ وصَريح[2]

وهكذا فإن المقدمات على تنوعها في قصائد المديح النبوي كانت ممهدات أساسية لدخول الغرض الأساسي وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، سارت في مجملها على النهج الموروث، ولكنها امتازت ببعدها عن الحسي المادي في الغزل، وعبرت عن شوق إلى الأماكن المقدسة في توقفها عند الطلل، واتخذت مساراً خاصا عندما توقفت عند الرحلة فجعلتها رحلة إلى عالم آخر حافل بالبهجة والنقاء والطهر.

([1]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 242/1، السبوح : الفرس، وسبح الفرس جريه، وهي صفة غالبة، والسابح من الخيل يمد يديه في الجري سبحا، والسبوح :النجوم تسبح في الفلك سبحًا إذا جرت في دورانها. والسبوح : أيضًا تسبيح الله تعالى والخّفة إلى طاعته عز وجل، انظر :اللّسان، مادة: سبح.

([2]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 242/1، شمت، نظرت من بعيد وتطلعت إليها، انظر :اللّسان، مادة: شيم، السنيح :ما يأتي عن اليمين من ظبي أو طائر أو غير ذلك والسانح يتيمن به، ويتفاءل، انظر :اللّسان، مادة: سنح

2-2: مضامين المدحة النبوية:

بعد أن ينهي الشاعر مقدمة قصيدته طللية كانت أم غزلية، أم غيرهما، ينتقل الشاعر إلى غرضه الرئيسي وهو المديح النبوي، وقد تضمنت قصيدة المديح النبوي في عصر بني الأحمر كثيراً من المعاني يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أ- الإشادة بليلة مولده صلى الله عليه وسلم والتبشير بنبوته:

توقف الشعراء الأندلسيون في قصائدهم المدحية للرسول صلى الله عليه وسلم عند ليلة ميلاده، وجعلوها عنصراً رئيساً ثابتاً من عناصر القصيدة المدحية، لا بد من ذكرها والتوقف عندها، فتكاد لا تخلو القصيدة المولدية من مساحة نصيّة لتلك الليلة، فقد أشاد الشعراء بالليلة التي ولد فيها الرسول - صلى الله عليه وسلّم – وانحازوا إلى تعظيمها، وتفضيلها على الزمان، فقد نال بها شهر ربيع الأول شرفاً عظيماً، لذلك فإن هذا الشهر مقدم على بقية شهور السنة، يقول أبو القاسم محمد بن عطية معبراً عن ذلك:

لقد شرف الله الوجود بمرسل   له في مقام الرسل أعلى المراتب
وشرف شهراً فيه مولده الذي   جلا نوره الأسنى دياجي الغياهب
فشهر ربيع في الشهور مقدم   فلا غرو أن للفخر ضربة لازب
فلله منه ليلة قد تلألأت   بنور شهاب نير الأفق ثاقب (1)

وهذا المعنى، أي تعظيم تلك الليلة ، وتفضيلها على الزمان، متكرر في كثير من القصائد المدحية، فهذا لسان الدين بن الخطيب يقول في ذلك:

فيا لَيلَةً قد عظَّمَ اللهُ قدْرَها   وأنْجَزَ للنَّورِ المُبينِ بها وعْدا
وصيّرَ أوْثانَ الضّلالةِ خُضَّعا   إلَيْها فلمْ يتْرُكْ سُواعاً ولا وُدّا
فصولي على مرّ الزّمانِ وفاخِري   بهَذا النّبيِّ الحالَ والقَبْلَ والبَعْدا (2)

ومن المعاني التي تناولتها قصيدة المدح النبوية، التبشير بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية، وهو معنى متكرر أيضاً عند كثير من الشعراء الأندلسيين، وقد أشار الشاعر ابن جابر الأندلسي إلى ذكر نبوته وفضله في كل من توراة موسى، وإنجيل عيسى عليهما السلام، فقال:

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 563/3.

(2) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 1/ 346.

نبي صدق جميع الكتب قد شهدت به فمبعثه في الكتب منقول
ولم تزل منزلات الكتب مخبرة عن صدقه يتبع التوراة إنجيل[1]

وقد كرر ابن جابر هذا المعنى في شعره وكان يربط هذا المعنى بالإشارة إلى الكهان الذين بشروا به، يقول:

لمبعثِهِ من كلِّ جيلٍ علامةٌ على ما جلتْهُ الكتبُ من أمرهِ الجلي
فجاء به إنجيلُ عيسى بآخرٍ كما قد مضتْ توراةُ موسى بأول
لأحبارهمْ في حُسنِ أخبارهم نبا نبا عنه حدّ الحاسدٍ المتأوّلِ
علا جدُّ (سيف) حين بشّر جدَّهُ بذلك تنبيهاً على قدْرِهِ العلي
وإنّ بحيرا أمَّ مرآةَ علمِهِ فأبصرَهُ فيها بعينِ التخيّلِ
وقد قام قسٌّ في عكاظ فقصّ من نبوّته ما قالهُ كلُّ مُنْزَلِ[2]

فيشير ابن جابر إلى تبشير الأنبياء من قبله به، كما يشير إلى الأحبار والرهبان وسيف بن ذي يزن وبحيرا وغيرهم.

وقد أشار غير شاعر إلى هذا الجانب، فهذا لسان الدين بن الخطيب يشير إلى الكاهنين: شقّ وسطيح اللذين أخبرا الناس بقرب مجيء النبي صلوات الله عليه، فيقول:

وَأَخْبَرَ شِقٌّ أَنَّ فِي الأَرْضِ عِنْدَهَا طُلُوعَ نَبِيٍّ طَاهِرِ الأَبِ وَالأُمِّ
رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَدْعُو إِلَى الْهدَى وَيَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمَةِ وَالسِّلْمِ [3]

أ.<u>الصفات الخُلقية (مناقب وفضائل الرسول صلوات الله عليه):</u>

فصل الشعراء في مدائحهم الحديث عن مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، وما أحدثته رسالته في حياة البشرية، فهي نقلة من الشرك إلى الإيمان، إلى عبادة رب العباد، ولكنهم كانوا دوماً يظهرون عجزهم عن إدراك تلك الصفات، وعجز شعرهم عن التعبير أما عظمة شخصية الرسول (ص)، فهذا الشاعر عزيز بن يشت يعبر عن قصور الشعر عن ذلك بقوله:

([1]) ابن جابر الأندلسي (محمد بن أحمد بن علي ت 780هـ)، نظم العقدين في مدح سيد الكونين، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2005 : 433.

([2]) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 448. في البيت الثالث، نبا الأولى بمعنى نبأ، ونبا الثانية بمعنى كلّ. وفي البيت الرابع المراد بشر سيف بن ذي يزن جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم بنبوته. والمراد بقس في البيت الأخير قس بن ساعدة.

([3]) ديوان لسان الدين الخطيب، 531/2، وشقّ: اسم كاهن جاهلي.

يا سائلي عن كنه بعض صفاته كلَّ البيان وكلّ عنه المنطقُ [1]

فما دام القرآن قد ذكر صفات الرسول وفضائله، وهو كلام الله، فلا غرابة أن يقصّر كلام الشعراء البشري عن ذاك المديح، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في قوله:

قصرت في مدحي فإن يك طيباً فبما لذكرك من أريج الطيب

ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى في مدحك القرآن كل مطيب[2]

ومن الفضائل التي رآها الشعراء في مدحهم الرسول، أنه كان نقطة تحول في مسار البشرية، فهو النور الذي أخرج الناس من ظلمات الكفر ، وهذا ما عبر عنه لسان الدين بن الخطيب بقوله:

لله مولده الذي أنواره صدعت ظلاماً للضلال بهيما

شرعت من التأييد سيف هداية أردت ظباه فارساً و الروما[3]

ومن الصفات التي توقفوا عندها صفات الصدق والحلم وأصالة النسب، وقد عبر ابن الخطيب عن تلك الصفات في قوله:

رَسُولٌ أَتَى حُكْمُ الْكِتَابِ بِمَدْحِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ اللَّهُ بِالصِّدْقِ وَالْحِلْمِ

قَرِيعٌ صَمِيمُ الْمَجْدِ فِي آلِ هَاشِمٍ أُولِي الْقَسَمَاتِ الْغُرِّ وَالْأُنُفِ الشُّمِّ

أَتَى رَحمَةً وَالنَّاسُ فِي مدلهمة يوحون في غي ويعدون في إثم[4]

وفي تفصيل نسبه، وأصالة ذاك النسب يقول ابن زمرك:

من هاشم في سماء العزْ مطلعُهُ أكرمْ بِهِ نسباً بالعزّ مُتَّشِحا

من آل عدنانَ في الأشراف من مُضَرٍ من محتدٍ تطمح العلياءُ إن طَمَحَا

من عهد آدمَ ما زالت أوامره تُسام بالمجد من آبائه الصُّرَحَا [5]

ومن الصفات التي فصل الشعراء بها، وصف الرسول بأنه نور الهداية، وحامي الحق، وهازم الشرك، وهذا ما نلحظه في قول ابن خاتمة الأندلسي:

([1]) نفح الطيب، 6/ 115.

([2]) الإحاطة في أخبار غرناطة: 509/3.

([3]) نفح الطيب، 7/ 298.

([4]) ديوان لسان الدين بن الخطيب: 2/ 530.

([5]) ديوان ابن زمرك، 377 .

كفى ببعثك خيرَ الرُّسلِ موهبةً عمّتْ كلا الثقلين الجنِّ والإنسِ
رسولُ يُمنٍ حبانا كلَّ مُلتَمَسٍ ونورُ هدْيٍ كفانا كلَّ ملتمسِ
حَمَى به الحقّ إرغاماً لمبطلهِ فالشّركُ في مأتمٍ والدينُ في عُرُسِ
نورٌ لمقتبسٍ، حِرزٌ لمحترسٍ يمنٌ لمنتكسٍ، نُعمى لمبتئسِ [1]

وقد فصل ابن الخطيب صفات كثيرة للرسول(ص)، في قوله:

وأنتَ ملادُ الخلْقِ حيّاً وميِّتاً وأكْرَمُهُمْ ذاتاً وأعْظَمُهُمْ مجْدا
فلوْلاكَ ما بانَ الضّلالُ منَ الهُدى ولا امْتازَ في الأرضِ المكِبُّ منَ الأهْدى
ولمّا محَتْ آيَ الشرائِعِ فترةٌ وأصْبَحَتِ الأهْواءُ لا تعرفُ القصْدا
وتعبُدُ منْ دونِ الإلهِ حِجارةً طَغامُ رِجالٍ يجْعَلونَ لهُ نِدّا
وفاضَ على الأدْيانِ دينُكَ واحْتوَتْ جُنودُكَ أقْصى الشّامِ والصّينَ والهِنْدا[2]

ثم يتوقف عند صفة الصبر التي تمتع بها الرسول الكريم فيقول:

وكمْ قد تجشّمْتَ الخُطوبَ كَوالِحاً وصابَرْتَ ليْلَ الرّوْعِ وهْوَ قدِ ارْبَدّا [3]

ب. <u>ذكر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم:</u>

وقد فصل الشعراء في مدحهم للرسول(ص) بالمعجزات التي خصه الله سبحانه وتعالى بها، وقد أشار ابن زمرك إلى هذه المعجزات التي امتاز بها الرسول عن غيره من الرسل عندما قال:

كم آيةٍ لرسولِ الله مُعجزةٍ تكلُّ عن منتهاها ألْسُنُ الفُصَحَا
اللهُ أعطاكَ ما لم يُؤْتِهِ أحداً واللهُ أكرمُ من أعطى وَمَن منحا[4]

فقد استعمل الشاعر لفظة(كم) الخبرية للإشارة إلى كثرة تلك المعجزات فهي تدلُّ على عددٍ غير معلوم أو محدود، وكلّ ألسن الفصحاء في استيفاء ذكرها.

([1]) ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الحكمة، بيروت، 1978، 15 – 16.

([2]) ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973، 481- 482.

([3]) ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973، 481- 482.

([4]) ديوان ابن زمرك: 377-378.

و من الشعراء مَنْ قارن بين معجزات الرسول الكريم ومعجزات الرسل الذين سبقوه مثل عصا موسى -عليه السلام-، وإحياء الموتى معجزة عيسى -عليه السلام-، مثل قول إسماعيل بن الأحمر:

إذا الرسل بالإفصاح طال مقامهم ... يطول رسول الله، وهو خطيبها
وإن أظهروا بالمعجزات عجائباً ... فقد ريئ بالمختار منها عجيبها
إذا ما عصا موسى أُعيدت يقودها ... له حيّة تسعى وخيف مصيبها
ففي الماء لمّا من أصابعه انهمى ... لمعجزةٌ، ما في البرايا ضريبها
وإن ميّتٌ أحياه عيسى فأحمدٌ ... به حَيِيَ الأمواتُ إذ خرّ نيبها[1]

ومن المعجزات الدالة على النبوة التي وقف عندها الشعراء معجزة الإسراء والمعراج التي خص بها الله رسوله الكريم، وفي الحديث عن هذه الحادثة لم يبالغ الشعراء في وصفها وتأويلها، أو الإطالة بذكرها، وبسط القول في تفصيلاتها، ووقفوا عند حدِّ ما جاء في القرآن الكريم بما يخص هذه الحادثة، لا سيما ما جاء في سورتي الإسراء والنجم، حيث استمدوا منهما بعض معانيهما وألفاظهما، على نحو ما ورد في قول أبي القاسم محمد بن يحيى الغساني البرجي الغرناطي:

سرى وجنح ظلام الليل منسدل ... والنجم لا يهتدي في الأفق ساربه
يسمو لكل سماء منه منفرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه
لمنتهى وقف الروح الأمين به ... وامتاز قرباً فلا خلق يقاربه
لقاب قوسين أو أدنى فما علمت ... نفس بمقدار ما أولاه واهبه
أراه أسرار ما قد كان أودعه ... في الخلق والأمر باديه وغائبه
وآب والبدر في بحر الدجى غرق ... والصبح لما يؤب للشرق آيبه[2]

هذا ابن الشران الغرناطي (ت837هـ) يروي في نص مديحٍ نبوي قصة الاسراء والمعراج بشكل يكاد يكون تفصيلياً:

وليلةُ المِعَراج أسرى فَما ... أسرَى وأسنَى شرفَاً في أللَّيالْ
جَالَ وجبريل أنيسٌ لهُ ... من السَمَاواتِ العُلَى حيثَ جَالْ
حتى انتهَى من سدرةِ المنْتَهى ... إلى مَقَامٍ لَمْ يَنَلهُ مَقَالْ

([1]) نثير فرائد الجمان لابن الأحمر، 317.
([2]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/ 297.

قَـالَ لـه الـروُحُ مَقَامِـي هُنَا … أنتَ فاصعـدْ لمقـامِ الـوصَـالْ
فقـال: يا أنيسَ افــردْ تنــي … حَيثُ دهتنـي مُدهِشـاتِ الجلالْ
فقـال : كـلا إنمـا الأنس مـا … أنت مُــوالِ ولكَ الله والْ(1)

إذْ يسرد أحداث تلك الليلة التي أسرى الله تعالى فيها نبيه فتتلاحق أساليب الروي عن طريق سرد الأخبار تارةً كقوله (جال وجبريل أنيس له) أو عن طريق الحوار كقوله (قال له، فقال :يا انيس، فقال : كلا).

وتحدث الشعراء عن معجزة الرسول (ص) الخالدة، وهي القرآن الكريم، فذكروا ما اشتمل عليه من عظات وعلم الأولين والآخرين والحلال والحرام، وما تميز به من أسلوب سام معجز، تحدّى به الله الإنس والجن على أن يأتوا بسورة منه فعجزوا، وهذا ما عبر عنه ابن جابر الأندلسي عندما قال:

وجاءكم بكتاب فيه موعظةٌ … للسامعين وتبيينٌ وتفصيلُ
وفيه أودع علمُ الأولين وعل … من الآخرين وتحريم وتحليلُ
علا اتّساقاً ونظماً ليس من بشرٍ … فللمعارض تعجيز وتخذيلُ
والعرْبُ عن سورة من مثله عجزوا … في وَفْرهم و هُمُ اللُسْن المقاويلُ (2)

ويذكر ابن زمرك من تلك المعجزات معجزة الشمس التي ردت عنه وكيف ظلله الغمام، فيقول:

إن رُدَّت الشمس من بعد الغروب له … قد ظلّلتْهُ غمامُ الجوِّ حيث نَحا(3)

ومن المعجزات التي اختص بها رسولنا الكريم الشفاعة يوم القيامة، لذلك اتجه الشعراء لطلب شفاعته، وجعلوا مدح الرسول (ص) وسيلة للتقرب من الله عز وجل، وتوسلاً لرفع المعاناة والبلوى، واستغفاراً من الذنوب، وطمعاً في الجنة، لأن الرسول هو شفيعهم يوم القيامة، وهذا ما عبر أبو سعيد فرج التغلبي الغرناطي (ت 783) في إحدى ملائمة عندما قال:

فيا هادي الخلق دار نعيم … تناهت جمالاً وطابت قرارا

---

(1) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين احمد بن محمد المغربي التلمساني، حققه مصطفى السقا، إبراهيم الابياري عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939 : 1/ 139.
(2) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 433.
(3) ديوان ابن زمرك،378.

لأنت الوسيلة والمرتجى ليوم يرى الناس فيه سكارى
وما هم سكارى، ولكنهم دهتهم دواه فهاموا حيارى
ترى المرء للهول من أمه ومن أقربيه يطيل الفرارا [1]

فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الشفيع يوم القيامة، يوم يتخلى فيه المرء عن أعز أقاربه ولا تبقى له سوى شفاعة نبي كريم، وقد صور الشاعر أهوال ذاك اليوم، يوم القيامة، مستفيداً من أوصاف القرآن الكريم له.

ت. التعبير عن مشاعر الحب والشوق للرسول(ص) وللديار المقدسة:

وقد كثر في المدائح النبوية وصف الرحلة إلى الأماكن المقدسة، وجعلوا من تلك الرحلة النبيلة تخلصاً من هموم الدنيا، وفوزاً بزيارة تلك الأماكن، ويكثر في هذه الرحلة وصف المطايا وسرعتها، وكثيرًا ما كان الشاعر يجمع في الوصف الروحي بينه وبين والرواحل لأنَّه (توحدت مهيجات الشوق والحنين بينهما، فما استفز الشاعر وألهب عواطفه وأثار كوامن أشواقه كان له الأثر نفسه في الناقة، ومما لا شك فيه أن الشَّاعر كان يعبر عما يجيش بدواخله على لسان حال ناقته)[2]، وفي مثل هذه المعاني يقول ابن الجيّاب الغرناطي:

لمن المطايا في السراب سوابحا تفلي الفلاة غواديا وروايحا
عوجاً كأمثال اللّقي ضوامراً يرمين في الآفاق مرمى نازحا
أو كالسحابِ تسيرُ مثقلةً بما حملته من سُقيا البطاح دوالحا[3]

ثم يصور الشاعر الشوق الذي اعتراه والذي انتقل إلى الرواحل، فيقول:

ركبٌ يُيمِّم غايةً بل آيةً أبدت مُحيّا الحقِّ أبلجَ واضحا
لمّا دعا داعي الرّشَاد مردِّداً لبُّوه شوقاً والحمام هوادحا[4]

([1]) أزهار الرياض، 2/ 205.

([2]) محجوب، سعاد(2004)، وصف البيت الحرام في الأدب العربي،332

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط2، 1973، 130/4، تفلي :تقطع تطلب ما فيها، انظر :اللّسان، مادة:(فلا)، اللقي :الملقى على الأرض المطروح، انظر: اللّسان، مادة: (لقا)، الدوال ح :السحب تدلح في مسيرها من كثرةِ مائها فتثقل وسحابة دلوح أو دالح، مثقلة بالماء ال كثير، انظر اللسان ، مادة (دلج)

([4]) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 130، هوادحا :التهويد، وهو ترجيع الصوتِ في لين، انظر :اللّسان، مادة: (هود)

وهنا نرى أن الرحلة إلى الأماكن المقدسة لم تعد رحلة مطايا وإبل تضرب البيد، وإنما أصبحت رحلة قلوب مؤمنة إلى عوالم الصفاء والإيمان، ولذا يرتفع في الشعر صوت الحادي بذكر الرسول (ص) الذي يجعل العيس تغذُّ السير يسبقها شوقها إليه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يقول ابن الجياب الغرناطي:

وإذا حَدَا الحادي بذكرِ المصطفى ... أذرُوا في الأكوارِ دمعاً سابحا
عيسٌ تهادى بالمحبيّن الألى ... ركبوا من العزم المصمِّم جامحا
طارت بهم أشواقُهم سباقةٌ ... فتركنَ أعلامَ المطيِّ رَوَازحا [1]

قد توقف الشعراء عند الديار المقدسة وعبروا عن أشواقهم إليها بذرف الدموع والسلام عليها، قال ابن الخطيب:

كَأَنِّي بِقَوْمِي حِينَ حَلُّوا حِلاَّلَهَا ... وَأَعْيُنُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَجْفَانُهَا تَهْمِي
يُكِبُّونَ لِلأَذْقَانِ فِي عَرَصَاتِهَا ... سَلاماً وَتَقْبيلاً عَلى ذَلِكَ الرَّسْمِ
فَيُعْفَى عَنِ الأَوْزَارِ فِي ذَلِكَ الْحِمَى ... وَتُغْتَفَرُ الآثَامُ فِي ذَلِكَ اكثم [2]

ويبدو من ذلك أن التغني بهذه الديار شأنه شأن الشعر الديني بعامة تعبير عن تلك الشحنات العاطفية التي تعتلج في الوجدان الديني للإنسان؛ لما تتميز به تلك الأماكن من قدسية استمدتها من الرسول الكريم، قال أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي الغرناطي :

شوقي إليها وإن شط المزار بها ... شوق المقيم وقد سارت حبائبه
معاهد شرفت بالمصطفى فلها ... من فضله شرف تعلو مراتبه[3]

وقد ربط الشعراء بين ذكر الأماكن والشوق إلى زيارتها، كما فعل ابن زمرك عندما قال:

يا راحلين وما تحمّل ركبُهم ... إلا قلوب العاشقين حُمولا
ناشدتكم عهدَ المودة بيننا ... والعهد فينا لم يَزَلْ مسؤولا
مهما وصلتُمْ خيرَ من وطئ الثرى ... أن توسعوا ذاك الثرى تقبيلا [4]

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 130، أذروا :صبوا دموعهم، انظر :اللّسان، مادة: (ذرا)، الأكوار:جمع كور، وهو الرحل، انظر :اللّسان، مادة: (كور)، جامحًا :مسرعًا، يقال فرس جموح أي سريع نشيط، انظر :اللّسان، مادة: (جمح).

([2]) ديوان ابن الخطيب،530/2.

([3]) الإحاطة في إخبار غرناطة، 2/ 296- 297.

([4]) ديوان ابن زمرك، 476- 477

وبذلك اكتسبت هذه الأماكن قيماً سامية، حرص الشعراء على إظهارها، وجعلوها عنصراً مهماً من عناصر القصيدة المدحية.

ث.سرد الأحداث التاريخية للسيرة النبوية:

نظم الشعراء الأندلسيون في عصر بني الأحمر قصائد مدحية اتسمت بالطول والتفصيل، ومن هنا لا غرابة أن نراها تتوقف في سياق القصيدة عند الأحداث التاريخية التي وقعت في السيرة النبوية الشريفة، فقد أسهب الشعراء في ذكر كثير من الأحداث والأخبار والمواقف التي رافقت البعثة، ومن أمثلة ذلك، قول ابن جابر الأندلسي يصف رحلة الرسول الكريم محمد (ص) مع صاحبه أبى بكر الصديق (رض) في نصين منفصلين مصداق ذلك يقول في الأول :

نَادَاهُ لا تَحزَنْ أنَّ اللهَ ثَالِثُنَا فَزَادَ صِدْقَاً ونَادَى نَفسَهُ اصطَبِر (1)

ثم يقول في موضع آخر ليزيد النص وصفا لمشاعر صاحب النبي إذ يقول :

وأبصَرَ القَومَ ثانِي اثنينِ قد مَثِلوا فَردَدَ القَولَ مِثلَ الخَايفِ الوَهِلِ (2)

و يصور ابن جابر معركة بدر، في سياق مدحه النبوي، فيقول:

بدا يومَ بدرٍ وهْو كالبدر حولَهُ كواكبُ في أفقِ المواكبِ تنجلي
وجبريلُ في جندِ الملائكِ دونَه فلم تغنِ أعدادُ العدوِّ المخذل
رمى بالحصى في أوجهِ القومِ رميةً فشردّهم مثلَ النعامِ بمجهل
وجادَ لهم بالمشرفيِّ فسلّموا فجادَ له بالنفسِ كلُّ مجندل
عبيدةَ سَلْ عنهمْ وحمزةَ واستمعْ حديثَهمُ في ذلك اليوم من علي
فَهم عتبوا بالسيف عُتبة إذ غدا فذاق الوليدُ الموتَ ليس له ولي
وشيبةُ لما شابَ خوفاً تبادرت إليه العوالي بالخضاب المعجل
وجال أبو جهل فحققَ جهلَهُ غداة تردّى بالردى عن تذلّل (3)

و ابن جابر الأندلسي له نتاج شعري غنيّ بقصائد المديح النبوي إذ ((تبرز أحداث السيرة النبوية في هذا النوع من الشعر بروزاً كبيراً وواضحاً فلا تخلو قصيدة نظمت في المولد من

(1) ابن جابر الأندلسي (محمد بن أحمد بن علي ت 780هـ)، نظم العقدين في مدح سيد الكونين، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2005: 267.

(2) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 454.

(3) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 449.

الوقوف على سيرة الرسول (ص) وتتبع مراحلها وذكر معجزاته))(1) فهذا التتبع لمراحل السيرة النبوية يقتضي التفصيل في ذكر أحداثها باعتماد أسلوب السرد والأخبار المباشر كما في قوله:

ومَـا زَالَتْ الأَخبَار تَنبي بِأنَّـهُ سَيظْهرُ في أخرى الزَمِانِ ويُبعَثُ
وفِي الرُسُلِ مِن عِيسى لآدم لَمْ يَزَلْ لــه نَبَاءٌ فَـاهُوا بِهِ وَتَحدَّثُوا
وكَــانَ يُسمَى بالأمينِ لَدَيهُمُ فمَـا عِرضُـهُ فِيهُمْ بِعَيبٍ ملوَّثُ
إلى أنْ أتاه الحَقُ وهو مُجَاورٌ بغـارِ حَراء قَدْ خَـلاَ يَتحَنثُ
فَقامَ بِأمرِ اللهِ يَدعُو الى الهُدَى ويَجلُـو صُدوداً بالهُدَى تَتَغلَّثُ
ويَصبِرُ في ذَات إلالهِ عَلى الأذَى فَيجفُونَ وَهـو الصَّابِرُ   المُتَلَّبِثُ
لَقَد عَلِمُوا أنَّ الذي قَالَ صَادِقٌ فَكَمْ أخبروا بالصِّدق عَنهُ وَحَدَّثُوا
وَمَــا وَجَدُوا صَبَراً يُكَذِبُ بَعثَهُ ولاَ كاهِناً مِنْ بَعدِ مَا طَالَ مَبَحثُ
بِــهِ خَتَـمَ اللهُ النَّبيينَ كُلَّهُــم فمَـا لِنَبيٍّ بَعد أحَمدَ مَبَعثُ
وأسرَى بِــهِ مِنْ بَيتِ مَكة رَبُهُ فكَـانَ لَهُ فَوقَ السَمَاواتِ مَلْبثُ
تَلَقتهُ امَـلاك السَمَـاء بسيرة فَهُمْ زُمَـرٌ يأتُـونَ مَثنى ومَثلَثُ
وحَلَّى إمام الرُسلِ ليلة أنْ سَرَى فَهَلْ فَوقَ هَذا فِي السَمَاواتِ مُورثُ[2]

يتضح أسلوب سرد الأحداث وفقا لتسلسلها التاريخي بدءاً من التنبؤ بنزول الرسالة وبعث النبي والإخبار عنه منذ سيدنا آدم وعيسى عليهما السلام مروراً بتعداد صفاته الحميدة وألقابه وقيامه بالدعوة إلى الهدى بعد نزول الوحي عليه في غار حراء ثم الانتهاء بذكر معجزة الإسراء والمعراج إذ أسرى به سبحانه وتعالى من مكة إلى بيت المقدس في استعراض مفصل لتلك الأحداث معتمداً أحد أساليب القص وهو السرد. وقد استرجع الشاعر في نصه أحداث السيرة النبوية اعتماداً على المرجعيتين التاريخية والدينية اللتين يمتلكهما الشاعر .

إلا أننا في قصيدة أخرى نجد الشاعر نفسه يعتمد أسلوب السرد والحوار معاً في استدعاء المرجعية التاريخية و تفصيل أحداث السيرة النبوية، مع ذكر حوارات الشخصيات المتعلقة في جزئيات تلك الأحداث وتفصيلاتها فيقول:

([1]) لنقراط، د. علي محمد (د. ت):ابن الجياب الغرناطي حياته وشعره، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولى ، 195.

([2]) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 107 – 108، تتغلث: تتولع ، تلتزم.

وقـولِهِ لمُعـاذٍ إنْ تَعِشْ سَتَـرى　　هَـذا جَنانـاً فلَمْ يَخلِفْ ولَمْ يُطُلِ
ويومَ أمِّ سَليمٍ إذ أتَى ولَهُـمْ　　مِنَ الطَعَـامِ طعامُ اثنِيـن أو رَجُـلِ
فَقالَ قُمْ فَأدْعُ لِـي عَشَراً فَأشبَعَهُمْ　　الى ثَمانِيـنَ والمَطعُـوُم لَـمْ يَحِلِ
وَقَدْرُ جَابِرَ إذ وَافَى فَعمَّ بهَـا　　ألفَـا جيَاعَـاً وَمَا فِي القِدرِ لَمْ يَزَلِ
وعِنَدمَا أنَزلتْ تَبّتْ يَدَا فَـأتَتْ　　حَمّالَـة الحَطَـبِ المَذمُوَمة العمَلِ
فكـانَ بَينَ يَديهَـا وَهـي مَا شَعَرَتْ　　لمَّـا أتَتْـهُ لترمِيهِ فلَـمْ تَصِـلِ
وحِينَ جَـاءَ أبـو جَهل ليؤذيـهُ　　فعَادَ يرعِدُ مِنْ خَوفٍ وَمَنْ وَجَلِ
وَقَـدْ رَأى دُونَـهُ نَاراً وأجنِحَـةً　　ومُرعِبَاتٍ مَتَـى أبصَرتَهَـا تَهِلِ
والغَارُ إذ غارتْ الاعَداءِ حِينَ سَرَى　　فكَـمْ أعَدّوا لَـهُ مِن مُحكمِ الحِيَلِ
وكَـانَ لَـو نَظرُوا قَصداً لأرجلهُمْ　　رأوهُ لكنْ حَوى صَوَناً عَنْ المُقَلِ
وقابَلَتـهُ حَمَـامُ الأيـكِ مَوهِمَـةً　　وأحكَمَ العَنَكبوتُ النَسجَ عَن عَجَلِ
وقـولِـهِ لأبي بَكـر هُنَاكَ وَقَد　　رَآهُ مِنَ شِـدِّةِ الإشفَاقِ ذَا وَجَلِ
تَخْشَى عَلى اثنَين ِرَبُّ العَرشِ ثَالِثُنَا　　فقُرَّا مِـن وَقُـرَّ العَيـنَ بالأمَلِ [1]

وواضح أن الشاعر في سرده للأحداث في النصين السابقين على دراية بكل تفاصيل الأحداث وصفات الشخصيات ، لا سيما في ذكره لمعجزات النبي (ص) وقد مازج في نصه أعلاه بين السرد والحوار وفصل القول في استعراض الأحداث التاريخية بكل جزئياتها وتفاصيلها من غير أن يضيف عليها من خياله، فلم يستطع الشاعر الخروج عن هيمنة الأحداث التاريخية على فكره، فراح ينقلها كما هي بل بشكل مفصل إلى خطابه دون محاولة تحويرها وتحويلها، مما يبعد النص عن رتابة السرد التاريخي.

3-2: خاتمة قصيدة المديح النبوي:

تنوعت الطرق التي ختم بها الشعراء الأندلسيون في عصر بني الأحمر قصائدهم، فقد نحى بعض الشعراء منحى جمالياً فنياً ، كما فعل ابن زمرك الذي يختم قصيدة نظمها في المولد النبوي بأن يصفها بالمرأة البكر التي جاءت – على استحياء – تطلب العفو من الممدوح ،معتذراً عما قد قصر فيها واصفاً إياها بفتاة بكر، لأنها بنت ساعتها، ولأنها لم تزف قبل إلى غيره فيقول :

فَافسح لَهاَ أكنَافَ صَفحِكَ إنَّهَا　　بكرٌ أتَتْ تَمِشي عَلَى استِحيَاءِ [1]

([1]) نظم العقدين في مدح سيد الكونين ، 482-483.

إذ التقط الشاعر صورة المرأة في حركتها وهي تمشي في استحياء وأحسن توظيفها وتحويلها بما ينسجم مع مقصده في وصف القصيدة.

وابن جابر الأندلسي ينهي معظم مدائحه النبوية بالصلاة على النبي وعلى آله وصحابته، وقد عبر عن ديمومة صلاة الله على النبي بدوام سجع الحمائم على الأغصان، فقال:

صلى عليك إله العرش ما سجعت ورقٌ لهن على الأغصان تهديلُ
أزكى الصلاة تعمُّ الآل واصلة صحباً همُ للورى زينٌ وتحجيلُ[2]

ولسان الدين ابن الخطيب ينهي قصيدته المدحية بطلب شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالصلاة عليه وعلى آله على مر الزمن، فيقول:

وقد مدحتك فارحمني وجد فعسى من هول يوم اللقا والحشر تنجيني
وكن شفيعي من النيران يا أملي و لعل أحظى بأجر غير ممنون
صلى عليك إله العرش ما غرّدت حمائم فوق أغصان البساتين
صلى عليك إله العرش ما هطلت مدامع السحب أو عين المحبين
صلى عليك إله العرش ما ضحكت مباسم الزهر في ثغر الأفانين
وألفُ ألفِ صلاة لا نفاد لها مضروبة في ثمان ألف تسعين
عليك يا خير خلق الله قاطبة و ألف ألف سلام في ثمانين
وآلك الغر والأصحاب كلهم و تابعيهم ليوم الحشر والدين [3]

ومن الشعراء من ختم قصيدته بالصلاة على النبي الكريم والدعاء للسلطان، وتتويج هذه الخاتمة بالتنويه بالقصيدة التي قالها، والإشادة ببنائها ومعانيها، فيكون التنويه بالقصيدة جزءاً من القصيدة، واستكمالاً لخاتمتها، قال ابن زمرك الغرناطي:

صَلّى الإلهُ على المختار صفوته ما العارض انهلَّ أو ما البارقُ التَمَحَا
وأيَّدَ اللهُ مولانا بعصمته بأيِّ باب إلى العلياء قد فَتَحا
مولايَ خذها كما شاءت بلاغَتُها غَرَّاءَ لم تعدَمِ الأحْجالَ والقُزَحَا
كأنَّ سِرْبَ قوافيها إذا سَنَحَتْ طَيْرٌ على فَنَنِ الإحسان قد صَدَحا[4]

([1]) ديوان ابن زمرك، 366.
([2]) نظم العقدين في مدح سيد الكونين، 436.
([3]) ديوان ابن الخطيب، 2/612-613.
([4]) ديوان ابن زمرك، 379.

وقد تخرج المدحة النبوية في خاتمتها أحياناً إلى مدح السلاطين والملوك، كما نجد عند أبي البركات البلْفيقي، الذي ختم قصيدة مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم، بمدح السلطان الغرناطي الغني بالله فيقول:

ملك الزمان المُرتضى من فتيةٍ مُلئت بذكرِ علاهمُ الأسفارُ
ملكٌ أقام من الهدايةِ مَعلماً طمَحت لعزِّ مقامهِ الأبصارُ
فمقامُه بين الملوكِ مقدَّم وثناؤهُ من بينهم مِعطارُ
أبشر أميرَ المسلمين محمَّداً لا زالَ ممن شأنهُ استبشارُ

وخلاصة القول إن المدائح النبوية في عصر بني الأحمر يمكن أن نستنتج منها أن هذا المديح قد اعتمد بناء فنياً سار فيه على نهج القصيدة التي عرفت في المشرق والمغرب، وقد اتسم بصدق العاطفة، وبالحب العظيم للرسول صلى الله عليه وسلم، لنيل رضاه وشفاعته، وقد تضمنت قصيدة المدح النبوية كثيراً من الأحداث التاريخية التي مرت بها السيرة النبوية العطرة، فصورتها تصويراً يكاد يكون أقرب إلى السرد التاريخي الحقيقي من دون مبالغات أو إضفاء خيالي، بخلاف القصائد التي كانت توجه إلى الممدوحين الآخرين التي ألفناها في شعر المشرق والمغرب التي كانت تجعل من المبالغة والخيال وسيلة في بناء النص الشعري.

الفصل الثاني

مدح الحكام والسلاطين

1- الهيكل البنائي للقصيدة المدحية:

غلب على المدحة آنذاك أن تكون مطولة أو معتدلة الطول وقلَّ أن تأتي في شكل مقطوعات قصيرة ، في حين أن هيكلها البنائي لم يخرج عما عرف من البناء التقليدي الذي كان عليه الشعر العربي قديمًا في المشرق من حيث اعتماده على مقدمة وموضوع وخاتمة ، سواء أكان ذلك على المستوى السياسي أو الديني أو حتى العلمي ، ولعلنا نكتفي بالتمثيل على هذا البناء بمدحة للشاعر الغرناطي ابن زمرك قالها في مدح السلطان النصري الغني بالله ، فقد بدأها بمقدمة غزلية جاء فيها:

معاذ الهوى أن أصحبَ القلب ساليا ... وأن يشغل اللوام بالعذل باليا
دعانيَ أُعطِ الحبَّ فضلَ مقادتي ... ويقضي عليَّ الوجدُ ما كان قاضيا
ودون الذي رام العواذلُ صبوةٌ ... رمتْ بيَ في شِعبِ الغرام المراميا
وقلبٌ إذا ما البرقُ أومضَ مَوْهناً ... قدحتُ به زنداً من الشوق واريا
خليليَّ إنّي يومَ طارقة النوى ... شقيتُ بمن لو شاء أنعم باليا
وبالخيفِ يومَ النفرِ يا أمَّ مالكٍ ... تخلّفتُ قلبي في حبالك عانيا[1]

فبمثل هذه المقدمة التي استعان بها ابن زمرك في هذه المدحة دأب شعراء المائة الثامنة الأندلسيون في النسج على منوالها مع اختلاف نوع المقدمة ما بين طللية وغزلية وأخرى في وصف الطبيعة .

بعد أن انتهى ابن زمرك من المقدمة يدخل إلى غرضه الأساسي وهو مدح السلطان النصري الغني بالله حيث يقول:

وإنّ أميرَ المسلمين محمداً ... ليُعدي نداه الساریاتِ الهواميا
تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خِلالُهُ ... وينفثُ في رُوع الزّمانِ المعاليا
معالٍ إذا ما النجم صوَّبَ طالباً ... مبالِغَها في العزّ حَلّق وانِيا
همامٌ يروعُ الأسدَ في حومةِ الوغى ... كما راعتِ الأسدُ الظباءَ الحواريا[2]

([1]) ديوان ابن زمرك، 514 .

([2]) ديوان ابن زمرك،515 وما بعدها.

أما الخاتمة وهي ثالث مكونات الهيكل البنائي للمدحة ، فقد استساغ الشعراء آنذاك أن تكون مزيجاً ما بين الدعاء للممدوح والتغني والافتخار بقدرة الشاعر على نظم المدحة، يقول ابن زمرك:

ودمتَ قريرَ العينِ منهُ بغبطةٍ وكان له ربُّ البريّة واقيا
نظمتُ له حرَّ الكلامِ تمائماً جعلتُ مكان الدُّرِّ فيها القوافيا
لآلٍ بها تبأى الملوك نفاسة وجلَّت لعمري أن تكون لآليا
أرى المالَ يرميهِ الجديدان بالبلى وما إن أرى إلا المحامدَ باقيا[1]

هذا هو البناء الهيكلي الذي سارت عليه المدحة في عصر بني الأحمر، فقد كان جل الشعراء آنذاك يسيرون على نهجه ، و تخرج المدحة عنه إلا في بعض المقطعات القصيرة التي قيلت في تمجيد الانتصارات فقد تخلت هذه المقطعات في بعض الأحيان القليلة عن المقدمة ومن ذلك ما قاله الكاتب أبو العلاء محمد بن سماك العاملي مهنئًا السلطان أبا الحجاج بفتح حصن كركبول:

بشرى بها صبح الهداية مسفر بشرى بها ليل الضلالة مدبرُ
فتحٌ تلقّى النصرُ منه تحيةً من لفظها ماء البشاشة يقطر
فتحت سيوفك كركبولَ وإنّه في الفتح عنوانٌ لما هو أكبرُ[2]

فقد استهل الشاعر مدحته بدون المقدمة ليدخل إلى موضوعه مباشرة ، خاصة عندما يتعلق الأمر بإحراز الانتصارات على الأعداء، فالفرحة والتعجيل في دخول فرحة النصر ربما كانتا وراء تخلي الشاعر هنا عن المقدمات، فالشاعر يريد أن يدخل موضوعه مباشرة.

2- مضامين قصيدة مدح الخلفاء:

احتوت قصيدة المديح الأندلسية في عصر بني الأحمر في مضامينها مجموعة من القيم الإنسانية والخلقية والنفسية والعقلية المستمدة من وحي المجتمع العربي المتجسدة في ضمير الأمة والمتوارثة جيلاً بعد جيل، وقد سعى الشعراء إلى تأكيد هذه القيم والحث على العمل بها؛ لتكون بذلك علامة مميزة يستحق صاحبها الإشادة والذكر والتغني بمآثره، وأعماله.

([1]) ديوان ابن زمرك، 519.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،1966، 199.

وقد عدد ابن طباطبا العلوي- ت322هـ هذه الفضائل الإنسانية التي وجد العرب تمتدح بها في الشعر فقال: ((وأما ما وجدته في أخلاقها وتمدّحت به، ومدحت به سواها وذمت من كان على ضد حاله فيه؛ فخلالٌ مشهورة كثيرة منها في الخلق والجمال والبسطة ومنها الخلق والسخاء والشجاعة والحلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف، والبر والعقل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان، وصلة الرحم وكتم السر والمواتاة، وأصالة الرأي....، والبيان والبشر، والجلد والتجارب والنقض والإبرام)).[1]

ثم تبعه قدامة بن جعفر- ت337هـ- الذي رأى أن ((الفضائل التي يمدح بها الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم عليه مشتركون فيه مع سائر الحيوانات))،[2] تنحصر في أربعة أقسام رئيسة وهي: العقل والعفة والعدل والشجاعة، ولكل من هذه الفضائل الرئيسة فروع ثانوية تتفرع عنها، فثقابة المعرفة والبيان والسياسة.. والعلم والحلم .. وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى إنما هي داخلة في العقل. والقناعة وقلة الشهوة وطهارة الإزار داخلة في باب العفة والحماية.. والدفع عن الجار، والنكاية بالعدو وغير ذلك داخل في الشجاعة، والسماحة والتبرع بالنائل، والإجابة للسائل، وقرى الأضياف وما جانس هذه الأشياء هي من أقسام العدل. [3]

ويتضح من خلال تأكيد النقاد لهذه الفضائل المحمولة، واستقصائها في مدائح الشعراء، أنهم كانوا يستحثون الشعراء في تتبع هذه الفضائل في ممدوحيهم وتمجيدها فيهم بوصفها أنموذج المدح الرفيع الذي يشيد بالسمو الإنساني ويصور مثلاً عليا للإنسانية.[4]

وسار الشعراء الأندلسيون في عصر بني الأحمر في تلمس فضائل ممدوحيهم بما يتفق وهذه الخطوط العريضة التي رسمها النقاد لهم.

تضمنت المدحة في هذا العصر عدداً من القيم الاجتماعية ومنها نعت بني نصر بالأحقية بالملك والجدارة به، وقد ظهر هذا المعنى واضحًا في أشعارهم ، وهو ما نجده عند ابن زمرك في مدحه للسلطان الغني بالله، من خلال إشارته بأنه قد ورث الملك عن آبائه وأجداده، ويقصد من ذلك قضيّة الأحقِيَّةِ بالمُلْكِ، يقول:

([1]) ابن طباطبا العلوي – ت: 322 هـ-، عيار الشعر، تحقيق: د. طه الحاجري، د. محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة، 1956م، 12.

([2]) ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1979، 65.

([3])ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1979، 68.

([4]) بدوي، د. أحمد (1979) ، أسس النقد الأدبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 124.

يا ابنَ الملوكِ وأبناء الملوك إذا ... تدعو الملوكُ إلى طوع تُلبّيها
أبناءُ نصرٍ ملوك عزّ نصرُهُمُ ... وأوسعوا الخلق تَنْويها وترفيها[1]

ودخل مدح الملوك في باب الاستجداء من أجل الحصول على كرمهم وهباتهم، ولهذا نرى كثيرا من الأشعار المدحية بدأت بوصف كرمهم الذي لا يعرف حدوداً، فهو لا يتوقف، ويُعطي قبل أن يُسأل. يقول أبو الحسن علي بن الجياب:

هذا الربيع أتاك ينشر حسنه ... فافسح لنفسك في مداه مجالها
إن تلقه في يوم بذل هباته ... تلق الغمائم أرسلت هطالها
ملك إذا ما صال يوماً صولة ... خلت البسيطة زلزلت زلزالها
فبسيبه وبسيفه نلت المنى ... واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها ... فكفى العفاة سؤالها ومطالها
إن قلت بحر كفه قَصَّرْتَ إذ ... شبهت بالملح الأجاج نوالها
وسقى البرية فيض كفيه فقد ... عم البلاد سهولها وجبالها[2]

كما أخذ الشعراء في مدائحهم بالإشادة ببطولاتهم وانتصاراتهم، وهو ما نلحظ في قول أبي زكريا يحيى بن هذيل في مدح السلطان أبي الوليد بن نصر عند قدومه في فتح (أشكُر) وهي من أعمال بسطة:

بحيث البنودُ الحمرُ والأسَدُ الوردُ ... كتائبُ سكانُ السماءِ لها جندُ
وتحتَ لواءِ النّصرِ ملكٌ هو الورى ... تضيقُ بهِ الدنيا إذا راحَ أو يَغدو
تأمنتِ الأرواحُ في ظلّ بَنْدِهِ ... كأنّ جناحَ الروحِ من فوقهِ بندُ
فلو رامَ إدراكَ النجومِ لنالَهَا ... ولوهمَّ لانقادتْ لهُ السندُ والهندُ[3]

وبرزت في القصيدة المدحية في هذا العصر القيم الدينية التي تمتع بها هؤلاء السلاطين، ولا سيما ما يتعلق بمواجهاتهم مع أعدائهم، فقد نعت الشعراء تلك المعارك بالجهاد في سبيل الله، فهذا ابن زمرك يشيد بأعمال آل نصر في ميدان الجهاد، فيقول:

يا آلَ نصرٍ أنتم سُرُجُ الهدى ... في كلّ خَطْبٍ قد تَجَهّمَ مُظْلِمِ

([1]) المقري، شهاب الدين حمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، 2/ 24- 25، والأبيات غير موجودة في الديوان بتحقيق النيفر.
([2]) المقري، نفح الطيب، 5/ 437.
([3]) المقري، نفح الطيب، 5/ 492- 393.

الفاتحونَ لكلِّ صعبٍ مُقْفَلِ والفارجونَ لكلّ خطبٍ مُبْهَمِ
والباسمونَ إذا الكماةُ عوابسٌ والمقدمونَ على السوادِ الأعظمِ
أبناءُ أنصارِ النَّبيّ وحزبِهِ وذوي السوابقِ والجِوارِ الأعصمِ[1]

ثم يربط ابن زمرك بطولات آل نصر بأمجاد المسلمين وبطولاتهم في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال وصف ممدوحيه بأنهم أنصار النبي الذين نصروه في بدر وأُحُد، فيقول:

سلْ عنهمُ أُحُداً وبدراً تلقَهُمْ أهلَ الغَناء بها وأهلَ المغنمِ
وبفتح مكَّة كم لهم في يومه بلواءِ خيرِ الخلقِ من متقدّمِ
أقسمتُ بالحرم الأمين ومكةٍ والركنِ والبيتِ العتيقِ وزمزمِ
لولا مآثرُهم وفضلُ علاهمُ ما كانَ يُعزى الفضلُ للمتقدِّمِ[2]

وفي التغني بانتصارات العرب المسلمين على القشتاليين في المعارك يقول ابن زمرك مادحاً الغني بالله وواصفاً بعض معاركه مضفياً على انتصاره طابعاً دينياً:

فكم مَعقلٍ للكفر صبَّحتَ أهلَه بجيشٍ أعادَ الصبح أظلم داجيا
رقيتَ إليه والسيوف مُشِيحةٌ وقد بلغت فيه النفوس التراقيا
ففتحتَ مرقاه الممنّعَ عَنْوَةً وبات به التوحيد يعلو مناديا
وناقوسه بالقسْرِ أمسى معطّلاً ومنْبرُه بالذكر أصبح حاليا
عجائب لم تخطر ببالٍ وإنما ظفرنا بها عن همة هي ما هيا[3]

تبدو الصورة الجميلة المعبرة بارزة من بين ثنايا الأبيات؛ إذ رسم الشاعر لوحته الفنية بدقة توحي بقوة المسلمين في معاركهم التي قاوموا فيها الخطر الإسباني، وهاجموه في عقر داره. والذي نلاحظه في عجز البيت الثاني قربه من أسلوب الآية القرآنية الكريمة: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾[4]، التي وظفها الشاعر لبيان رهبة الأعداء وخوفهم الشديد من جيش المسلمين. كما أن الشاعر أثار الجانب الديني، بوصفه عاملاً مهماً وكبيراً في مواصلة واستمرار مقاومة الأندلسيين للإسبان عبر معاركهم التي خاضوها إعزازاً لدينهم وإنقاذاً لوطنهم من الزحف الإسباني.

([1]) ديوان ابن زمرك، 485.
([2]) ديوان ابن زمرك، 485.
([3]) ديوان ابن زمرك، 522.
([4]) سورة القيامة، 26.

وقد تضمنت قصائد المديح وصف ما كان يفعله الممدحون بأعدائهم، كما نلحظ في وصف ابن رضوان[1] دمار الأسطول الإسباني في جبل طارق عام (750هـ) فقال:

وَلَمّا اسْتَقَامَتْ بِالزُّقَاقِ أسَاطِلٌ　　وَاسْتَقَلَّتْ لِلسُّعُودِ مَحَافِلا

رَآهَا عَدُوُّ اللهِ فَانْفَضَّ جَمْعُهُ　　وَأَبْصَرَ أَمْوَاجَ البِحَارِ أسَاطِلا

وَمِنْ دَهْشٍ ظَنَّ السَّوَاحِلَ أبْحُراً　　وَمِنْ رُعُبٍ خَالَ البِحَارَ سَوَاحِلا

وَمِنْ جُنْدِكُمْ هَبَّتْ عَلَيهِ عَوَاصِفٌ　　تُدَمِّرُ أدْنَاهَا الصِّلابَ الجَنَادِلا

حَدَاهُمْ هَوَاهُمْ لِلإسَارِ وَلِلفَنَا　　فَمَا أفْلَتُوا مِنْ ذَا وَذَاكَ حَبَايلا

فَهُمْ بَينَ عَانٍ فِي القُيُودِ مُصَفَّدٍ　　وَفَانٍ عَلَيهِ السَّيفُ أصْبَحَ صَايلا [2]

لقد نجح الشاعر أيّما نجاح في وصف الأساطيل العربية الإسلامية التي أرعبت الأعداء وفرقت شملهم. وقد استعمل الشاعر عبارات توحي بهزيمة الأعداء وانتصار المسلمين، مثل قوله: (فانفض جمعه) و(ومن رعب خال البحار سواحلا) و(هبت عليه عواصف) و(حداهم هواهم للإسار وللفنا) و(عانٍ في القيود مصفّد).

كما برزت القيم الخلقية في المعاني المدحية، إذ أسبغ الشعراء على ممدوحيهم صفات أخلاقية جعلتهم جديرين بما هم عليه، وهذا ما ذهب إليه الشاعر عبد الحق بن عطية المغربي(ت: 709هـ)، الذي يرى في ممدوحه مثالاً للحاكم العادل الذي يترفق في برعيته، ويجعله ملاذ الفقراء والضعفاء، فيستجيرون به، ويربط تلك الصفات بصفات أخرى هي نبل الأخلاق، والإيثار، فهو يجود بما يملك على غيره، ولا يقابل الإساءة إلا بالحسنة، يقول:

من آل نصر أولى السلك الذي بهرت　　علاه كالشمس لما حلت الحملا

هو الذي شرف الله البلاد ومن　　فيها بدولته إذ فاقت الدولا

أقام عدلا ورفقا في رعيته　　وكان أرحم من آوى ومن كفلا

فهو المجار به من لا مجير له　　لم يخش إحن الليالي فادحا جللا

([1]) هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف النجاري، من أهل مالقة، كان من علماء العربية ومشاركاً في علوم الحساب والهندسة، توفي سنة (757هـ)، تنظر أخباره في الإحاطة، 443/3، ونفح الطيب، 107/6.

([2]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 447.

بالحزم والفهم والإقدام شيمته والجود مما على أوصافه اشتملا
يولي الجميل ويعطي عز نايله من قد رجاه ولا استجدى ولا سألا(1)

والعدل من الصفات التي وجدها ابن الخطيب في سلطانه، عندما يقول:

وَكَفَفَتْ كَفَّ الجَوْرِ فِي أَرْجَائِهَا وَعَمرْتَ رَبْعَ العَدْلِ وَهْوَ خَلاَءُ (2)

واجتمعت في ممدوح الكاتب أبي على حسين بن عبد الحكيم التنملي خصال الحاكم المثال، فجمع بين الخصال الدينية والسياسية المتفقة مع مبادئ الدين الحنيف؛ فالممدوح لم يدخر وسعاً في الذود عن محارم الله وإعطاء الفقراء؛ فكان ذلك ذكراً حميداً بين الناس مع قدرته وشدته في نصرة الحق، والممدوح مشغول في يومه كله فهو ناسك متعبد لله في ليله وقدوة صالحة لرعيته في نهاره؛ فكان ذلك مدعاة لبقاء الملك في يديه وذريته، وفضل عن ذلك فالممدوح أهل لبلوغ أعلى مراتب المجد لصبره واحتسابه وتجشمه الصعاب وصولا إلى العلى؛ إذ يقول:

منحت اللهى وحميت الذِمارا فَرُقْتَ ثناءً ورعَت اقتدارا
وعمرت وقتيك نسكاً وملكاً فتعبد ليلاً وتهدى نهارا
ولم تلو حزماً على لذة لأنك لم تلف فيها افتخارا
تجشمت بالصبر في المجد هولاً وهل يدرك المجد إلا اصطبارا
ولم تتهيبْ صعاب المرامي ولم تَخْشَ من هولها حين ثارا
أطعت الإله فلا شيء إلا أطاعكَ دأباً وأبدى ابتدارا (3)

واتكأ الشعراء في مضامينهم المدحية على أنساب الممدوحين؛ فاخذوا يشيدون بأصالة هذه الأنساب التي ينتمي إليها الممدوحون، ولن نناقش صحة هذا الانتساب من عدمه؛ فتلك مسالة يعنى بها المؤرخون والنسابة، ولكن يبقى أن الشعراء وجدوا في ترويج هذا الانتساب صدى لدى الممدوحين، فأخذوا بترديد هذه الأنساب في مضامينهم الشعرية؛ فقد رفع الشعراء على سبيل المثال نسب المرابطين إلى قبيلة حمْيَر، ونسب الخلفاء الموحدين إلى قيس بن عيلان[4]، وفي عصر بني الأحمر، اتكأ الشعراء في مضامينهم المدحية على الإشادة بأصول بني الأحمر؛ إذ

([1]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 565، والشاعر هو من تلامذة لسان الدين بن الخطيب.

([2]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 1/ 96.

([3]) ابن الخطيب، لسان الدين : الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت: 208.

([4]) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة 1963م، 265.

رفعوا نسبهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة زعيم الخزرج؛ فأخذ الشعراء في استحضار مآثر الأنصار وربطها بالممدوح؛ فذكروا نصرتهم للرسول (ص) وإيثارهم وإيواءهم للمهاجرين، وبذلهم في سبيل إظهار الدعوة الإسلامية الفتية، على وفق ما نجد في أبيات الشاعر على بن محمد الأنصاري يمدح أحد ملوك بني الأحمر مشيدا بفضله وعدله وحلمه وجوده وان هذه المناقب الجليلة ورثها الممدوح من آبائه آل قيلة الذين عرفوا بإغاثة الملهوف وتامين المروع، كما عرفوا بنصرتهم للرسول الكريم خير البرية على حين خذل الآخرون الرسول الكريم يقول:

وسع الأنام بفضله وبعدله ... وبحلمه وبجوده الثجاج
من آل نصرٍ نخبة الملك الرضا ... أمن المروع هم وغيث اللاج
من آل قبلة ناصري خير الورى ... والخلق بين تخاذل ولجاج [1]

ويخاطب الشاعر عليّ بن أحمد الخشني- ت 750هـ- أحد بني الأحمر بلغة التقرير بأنه

وقومه الأنصار آووا الرسول الكريم (ص)، وأنهم وقفوا مناصرين للنبوة؛ فعملوا على إعلاء شأنها، فكانوا فرسان الحروب نصرة لهذا الدين العظيم، فلهم في بدر صولات وجولات إذ دقوا رؤوس المشركين وردموها في بئر القليب يقول:

آوَيْتُمُ خيرَ البريةِ كلّها ... ومُغيثَها ونجاتها وثمالها
دامت صلاة الله ديمة عارض ... يهمى عليه ندى الدنا هطّالها
لمّا تحقّقت النبوة أنها قد ... زلزلت منها الورى زلزالها
وتقاعَسَت عن منعها أعمامها ... أمّت أيمّة نصرها أحوالها
فوثبتم مثل الليوث لنصرها ... والحرب تجنب خلفها أشبالها
وأدرتم منها زبوناً أصبحت ... ترمي رؤوس الملحدين ثقالها
بدرٌ وما بدرٌ وردم قلبها ... بجنادل الطاغوت تملأ جالها
وذهبتم بالمصطفى لدياركم ... وحياً سواكم ساقها وجمالها[2]

ويشيد ابن الخطيب بممدوحه؛ فيرفعه إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه؛ فيذكر مآثر الخزرج أصحاب رسول الله(ص) الذين نزل بين ظهرانيهم القرآن؛ إذ ربى فيهم حب الآخرين فآثروهم بزادهم وأغلى ما يملكون على نفوسهم وكانوا من السخاء بحيث أعطوا ضيفانهم فوق ما يتوجب عليهم؛ فملأوا الحقائب بالعطايا فضلاً عن إكرامهم يقول:

([1]) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 130.

([2]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 180.

مِنْ آلِ سَعْدِ الْخَزْرَجِ بْنِ عُبَادَةٍ صَحْبِ الرَّسُولِ وَأُسْرَةِ الْفُرْقَانِ
الْمُؤْثِرِينَ عَلَى النُّفُوسِ بِزَادِهِمْ وَالْمُعْمِلِينَ حَقَائِبَ الضِّيفَانِ [1]

ويستلهم ابن زمرك في مدحه مآثر الأنصار آباء الممدوح؛ فيذكر الشاعر أصالتهم وسابق مجدهم بدليل ما جاء به القرآن الكريم من تخليد لهذه المآثر في نصرة الدين الحنيف، وأن الممدوح امتداد طبيعي لهذا الشرف الخالد، إذ يقول:

فيا وارث الأنصار لا عن كلالةٍ تراثَ جلال يستخفُّ الرواسيا
بأمداحه جاء الكتاب مفصلاً يرتِّله في الذكر من كان تاليا
لقد عرفَ الإسلام مما أفدتَهُ مكارمَ أنصاريّةً وأياديا [2]

ويجعل الشعراء من قتال بني الأحمر لأعدائهم جهاداً مقدساً، يهدف إلى نصرة الدين، فابن الخطيب يرى السلطان أبا الحجاج لا يدخر جهداً في محاربة أحزاب الضلال، لذلك لا يجدون بداً من الجنوح إلى السلم خوفاً ورهبة منه، يقول:

وجاهَدْتَ أحْزابَ الضّلالةِ جاهِداً فلَمْ يُغْنِهِمْ منْ حَدِّ سيْفِكَ ما كادوا
ولاذوا الى السِّلْمِ استِلاماً ورَهْبَةً وقد شارَفوا وِرْدَ المنيّةِ أو كادُوا[3]

ومن هنا لا غرابة أن يضفي الشعراء على هذا القتال للأعداء صفات دينية، كما فعل ابن الخطيب الذي جعله جهاداً ونصرة للدين، عندما قال:

أزْمَعْتَ فِي اللهِ الْجِهَادَ وَطَالَمَا أرْضَى الإلهَ جِهَادُكَ الْمَقْبُولُ
وَأنِفْتَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَأهْلِهِ مِنْ أنْ يَطِيحَ نَجِيعُهُ الْمَطْلُولُ
وَقَدَحْتَ زَنْدَ عَزِيمَةٍ نَصْرِيَّةٍ تَرَكَتْ دَيَارَ الْكُفْرِ وَهْيَ طُلُولُ
وَسَلَكْتَ لِلتَّقْوَى سَبِيلاً سَنَّهَا عَلَمُ الْمُلُوكِ أبُوكَ إسْمَاعِيلُ
وَرَجَعْتَ وَالنَّصْرُ الْعَزِيزُ مُصَاحِبٌ لكَ وَالْمَلاَئِكَةُ الْكِرَامُ قَبِيلُ [4]

ولم يغب الجانب الديني عند وصف السلاطين، فقد أظهر بعض الشعراء جانب التقوى عند بعض السلاطين، كما نلمح في قول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج:

وللّهِ منْ صومٍ قضَيْتَ حُقوقَهُ وزوّدْتَهُ المَتْلوَّ منْ مُحْكَمِ الذِّكْرِ

([1]) ديوان لسان الدين بن الخطيب،2/ 576.
([2]) ديوان ابن زمرك، 526.
([3]) ديوان لسان الدين، 2/ 487.
([4]) ديوان لسان الدين، 2/ 487.

وصَلْت بهِ لَيْلَ التّمامِ بيَوْمِهِ وناجَيْتَ منْهُ الرَّوْحَ في ليْلَةِ القَدْرِ

كما احتفت المدحة للسلاطين في هذا العصر بما حققه السلاطين من أمن في البلاد، فهذا ابن الخطيب يمدح السلطان أبي الحجاج ذاكراً ما حققه لبلاده من الأمن ورفع الجور فيقول:

قَسَماً برَبِّ البُزْلِ وَهْيَ طَلائِحٌ نَحَتَتْ مَنَاسِمَ سُوقِهَا الْبَيْدَاءُ

لَرَفَعْتَ ظِلَّ الأَمْنِ خَفَّاقاً فَقَدْ كَادَتْ تَسِيرُ مَعَ الذِّئَابِ الشَّاءُ

وَكَفَفْتَ كَفَّ الجَوْرِ فِي أَرْجَائِهَا وَعَمرْتَ رَبْعَ العَدْلِ وَهْوَ خَلاَءُ [1]

وتغنى الشعراء بما فعله السلاطين من حماية البلاد من الأعداء، وهذا ما نلحظه في قول لسان الدين بن الخطيب في مدح السلطان أبي الحجاج:

إذا دَهَمَ الرَّوْعُ استَقَلّ دِفاعُهُ وإنْ أخْلفَ الغَيْثُ استهَلّ سَماحُهُ

بيوسُفَ لاحَ الحَقُّ أبْلَجَ واضِحاً وأصْبَحَ دينُ اللهِ فازَتْ قِداحُهُ

تلافَيْتَ بالعَزْمِ البلادَ وأهْلَهَا وقدْ عَصفَتْ للكُفْرِ فيها رياحُهُ

وحَفّتْ بِهِ الأعْداءُ منْ كلِّ جانِبٍ كما حَفّ بالخَصْرِ الهَضيمِ وِشاحُهُ

وقُدْتَ إلَيْها الجيْشَ والعَسْكَر الذي تُرَوّى عَواليهِ وتُرْوَى صِحاحُهُ

وصَبّحْتَ جَمْعَ الكُفْرِ في مُستقَرِّه فخابَتْ مَساعِيهِ وساءَ صَباحُهُ [2]

وتضمنت قصيدة المدح الموجهة للسلاطين إظهار الشعراء مشاعر الحب للممدوح، فابن الخطيب يرى في حب السلطان أبي الحجاج ذخره في حياته، فيقول:

فلازِلْتَ يا أبْقَى المُلوكِ مآثِراً وأمْضاهُمُ في اللّهِ أبْيَضَ هِنْدِيّاً

رِضاكَ لرِضْوانِ الإلهِ مُبَلِّغٌ وحُبُّكَ ذُخْرٌ في المَماتِ وفي المَحْيا [3]

وصفة الكرم كانت من الصفات الأثيرة لدى الشعراء لذلك نراهم يلحون عليها في مدحهم للسلاطين، وهي ربما تخفي رغبة الشاعر في التكسب بشعره، أو طمعه في الوصول إلى منصب أو المحافظة عليه، ولذلك كان الشعراء يجعلون الممدوح غاية الكرم ومنتهاه، فهو أكثر عطاء من الغيث، في مبالغة لطيفة، كما نلحظ عند ابن الخطيب الذي يقول مادحا السلطان أبا الحجاج:

وإنْ حَلَفَ الغيْثُ السَّكوبُ بأنّهُ أعَمُّ نَدىً منْ يوسُفٍ فهْوَ حانِثُ [4]

([1]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 95-96. البزل: بزل البعير مثل شق، ويقال: جمل بازل، وإبل بزل.

([2]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 1/ 220.

(3) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 2/ 778.

(4) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 1/ 190.

كما يجعل ابن الخطيب من أنامل سلطانه البحر عينه، بل ربما هي أكثر جوداً، يقول:

لَقَدْ ضَلّ مَنْ يَبْغي من البحْرِ ضَلّة ولمْ يدْرِ أنّ البَحْرَ أنْمُلُكَ العشْرُ [1]

وتستلهم صورة الإبل المثقلة بالحمول، كثيرًا من الشعراء الأندلسيين، فيتخذونها في وصف الهباتِ والعطايا، ومنهم ابن زمرك، يقول:

وبالأمس وافتني هباتٌ عظيمةٌ تكلُّ بها ظهر المطي وتثْقلُ [2]

وهي الحمول التي كانت تسمى في الشعر بالحقائب أيضًا،[3] وقد استعملها ابن الخطيب في إحدى مدحه، عندما قال:

وَتُثْنِي بِعَلْيَاكَ الرِّكَائِبُ في السُّرىَ وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ [4]

وقد قرن الشعراء فضيلة الكرم في ممدوحيهم بالشجاعة، فكان الكرم صفة ملازمة للممدوح الذي يتسم بالشجاعة والفروسية، يقول ابن الخطيب:

وسيْفُكَ مرْهوبُ الغِرارِ حَديدُهُ وسَيْبُكَ مسْكوبُ النّوالِ عَتيدُهُ [5]

كما يجعل ابن الخطيب كفي سلطانه أبي الحجاج تحملان الجود والبأس، ففي الحرب هما بأس على الأعداء وحماية لرعيته، وفي الجدب هما العطاء الذي يرسل الخير، يقول:

مَنْ لِلْحَيَا بِنَوَالِ كَفَّكَ إنْ هَمَى مَنْ لِلسَّوابِقِ أنْ تَجُوزَ مَدَاكَا

سَيْبٌ وَسَيْفٌ ضُمِّنَا فِي رَاحَةٍ ضَمِنَتْ حَيَاةً لِلْوَرَى وَهَلاكَا [6]

ومن الصفات التي اشتملت عليه المدحة للسلاطين نعت السلطان بحسن التدبير، ويظهر هذا المعنى في مدح سياسية السلاطين القائمة على الصلح والمهادنة، كما نلحظ في مدح ابن فركون للملك يوسف الثالث عندما عقد الصلح مع بني مرين واتفق معهم على قسمة البلاد الغربية بينهما، فقال:

---

(1) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 1/ 402.

(2) ديوان ابن زمرك، 86.

(3) كما نلحظ في قول: نصيب بن رباح في مدح سليمان بن عبد الملك:
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهْلهُ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ.
انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، 233. الحقائب :جمع حقيبة، والحقيبة تكون على عجز البعير وهي الرفادة، انظر لسان العرب، مادة حقب.

(4) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 122/1.

(5) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 270/1.

(6) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 2/ 470.

فَيا ناصِرَ العَلياءِ والمَلِكُ الذي ... به مِلّةُ الإسْلامِ كُفَّتْ عُداتُـها

تَرومُ مُلوكُ الأرضِ شأوَكَ في العُلى ... وقد قصُرَتْ عن نَيْلِه خُطُواتُها

ولما توالّتْ فتْنَةُ الغَربِ واعْتَدَتْ ... على أهْلِهِ في كُلّ حيٍّ طُغاتُـها

وما اتّفقَتْ إلا على صُحْبَةِ الرّدى ... كما اختَلَفَتْ آراؤُها ولُغاتُـها

دعَتْك لعَقْدِ السَّلْمِ بين مُلوكِها ... أكارمُ حيٍّ في يدَيْكَ حياتُها[1]

فقد جعل الشاعر من توجه الملك يوسف الثالث إلى الصلح والمهادنة نصرة للعلياء، ونصرة للإسلام، ثم يشير إلى شجاعة يوسف الثالث الذي صاحب الموت في كناية عن بأسه وشجاعته وكثرة قتاله للأعداء، لكنه عندما يُدعى لعقد السلم من قبل أكارم الناس فإنه يلبي ذاك النداء في إشارة منه إلى أنه حسن التدبير في الشؤون السياسية.

ووصف الشعراء ممدوحيهم بحسن سياسة النَّاس، والقدرة على قيادتهم، فمن ذلك تشبيههم بالإبل الصعبة التي لا يروضها إلاّ رجلٌ قدير وهو الممدوح، وذلك في قصيدةٍ لابن الخطيب، زاد فيها وصفه بالسماحةِ والكرم، من خلال تشبيهه بالمنتجع البدوي الذي ينبت العشب والكلأ، مما يجعله مقصدًا للنَّاس، كما كان المنتجع مقصدًا لأهل البادية، فقال:

سَاس الْبِلاَدَ وَرَاضَ مِنْ دَهْمَائِهَا ... إبلاً صِعَاباً لاَ تُطِيق خِطَامَا

إنْ أَمَّه الْعَافُون يَنْتَجِعُونَهُ ... يَلْقَاهُمُ مُتَهَلِّلاً بَسَّامَا[2]

3- تحليل نموذج من قصائد مدح الخلفاء:

وتبقى بعد هذه العناصر المشتركة لقصائد المدح التي قيلت في بني الأحمر لكلّ قصيدةٍ خصوصيتها المستوحاة من مناسبتها، ولا يمكن أن تدرس هذه القصائد جميعها وإنما سأختار نماذج منها لبيان أوجه التفرد والتميز الذي تفرضه طبيعة المناسبة. وسنتوقف عند مدحة للشاعر لسان الدين بن الخطيب، وليس غريباً أن يستأثر سلاطين بني نصر بمدح ابن الخطيب، لأنه كان أحد العاملين في بلاطهم ووزيراً لهم، لذلك أخذ الشاعر على نفسه مدحهم والإشادة بمناقبهم، وتخليد مآثرهم و انتصاراتهم، وقد أدرك ابن الخطيب أربعة من سلاطين بني نصر هم: أبو عبد

([1]) ديوان ابن فركون، أبو الحسين بن فركون، (ق 9)، تحقيق: محمد شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1987 : 215.

([2]) ديوان ابن الخطيب، 2/ 535، الدهماء، الجماعة من الناس، والدهماء العدد الكثير، ودهماء الناس جماعتهم وكثرتهم، انظر :اللّسان، مادة: دهم. الخطام :الحبل الذي يقاد به البعير وهو الزمام، انظر :اللّسان، مادة(خطم). ينتجعونه :النجعة عند العرب، المذهب في طلب الكلأ في موضعه والنجعة طلب الكلأ ومساقط الغيث، انظر : اللّسان، مادة: نجع.

الله محمد بن إسماعيل سادس ملوك بني نصر (توفي: 733هـ). وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل سابع ملوك بني نصر(توفي: 755هـ) وهذا السلطان حاز على القدر الأكبر من المدح إذ تجاوزت قصائد ابن الخطيب فيه خمسين قصيدة. وأبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بالغني بالله، ثامن ملوك بني نصر (توفي 793هـ). وأخيراً إسماعيل بن يوسف، تاسع ملوك بني نصر.

نتوقف عند قصيدة لابن الخطيب مدح فيها السلطان أبا الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل، الذي كان يرى فيه ابن الخطيب الشخصية المثالية لخليفة المسلمين، فالشاعر لم يكن يراه إلا (في حرب أو مستعداً لحرب أخرى، أو في بهو قصره مستعداً لاستقبال أرسال ملوك الروم آتية لطلب السلم، وراغبة في الهدنة)[1].

ابتدأ الشاعر قصيدته بالغزل، يقول:

وَسْوَاسُ حَلْيكِ أمْ هُمُ الرُّقَبَاءُ ... لِلْقَلْبِ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ إصْغَاءُ

وَوَمِيضُ ثَغْرِكِ أم تَأَلُّقُ بَارِقٍ ... وَشِهَابُ شُنْفِكِ ذَا أمِ الْجَوْزَاءُ

يَا بَانَةً وَرَقُ الشَّبَابِ ظِلاَلُهَا ... وَكَأنَّ قَلْبِي بَيْنَهَا وَرْقَاءُ

يَا بَدْرَ تِمَّ يَهْتَدِي بِضِيَائِهِ ... سَارِي الفَلاَةِ وَلَيْلَتِي لَيْلاَءُ

أشْكُوكِ أمْ أشْكُو إلَيْكِ صَبَابَتِي ... أنْتِ الدَّوَاءُ وَمِنْكِ كَانَ الدَّاءُ [2]

نلاحظ أن الشاعر ابن الخطيب يسير في هذه المقدمة على نهج أسلافه الشعراء، فيبدأ قصيدة المدح بالتغزل بالحبيبة وهي سُنّة اتّبعها الشعراء لاستمالة قلوب السامعين إلى ما يقولونه، فالشاعر يبدأ بوصف ثغر الحبيبة، والقرط الذي تعلقه في أذنها، ثم ينعتها بالبانة الشابة، وما تفعله في قلبه، كما يشبه إشراقة وجهها بالبدر التام الذي يزيل ظلمة الليل فيهتدي الساري إلى طريقه في مبالغة لطيفة، وبعد كل ذاك لابد للمحبوبة التي تمتلك كل تلك الصفات من تعمل عملها في قلب الشاعر الذي أضناه الغرام والصبابة لتلك الحبيبة المتخيلة التي يكمن الداء والدواء فيها، فهي العلة وهي الشفاء، وهذه العلة التي توجع قلب الشاعر لن يجد من يخفف من غلوائها إلا الممدوح الذي يتوجّه إليه الشاعر بخطابه، ومن هنا يحسن الشاعر الانتقال إلى غرضه الأساسي وهو مدح السلطان الغرناطي، فيقول:

([1]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 18 المقدمة النقدية التي كتبها محقق الديوان.

([2]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 93. الشنف: القرط الأعلى أو ما يعلق فوق الأذن. الجمع . والجوزاء: برج في السماء

مَا لَجَّ دَاءٌ أَوْ تَفَاقَمَ مُعْضِلٌ إلاَّ وَفِي يُمْنَى يَدَيْهِ شِفَاءُ

إِنْ رَامَ بِالتَّدْبِيرِ حِيلَةَ بُرْئِهَا أَبْدَتْ مَنَافِعَهَا لَهُ الأَعْضَاءُ

فالشاعر يبالغ - كعادة الشعراء في المدح- في منح ممدوحه قدرات فائقة في التخلص مما يصيبه أو يصيب رعيته من أدواء، فهو يجد لكل داءٍ دواء مناسباً، ولا تعييه نائبة.

ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير سياسة الممدوح في التعامل مع رسل الروم وجنوحه نحو المسالمة والهدنة معهم، فيقول:

حَتَّى إِذَا سَئِمَتْ نُفُوسُهُمُ الرَّدَى وَاعْتَاضَ مُصْطَبَرٌ وَعَزَّ عَزَاءُ

وَافَوْا وَقَدْ جَعَلُوا الدُّرُوعَ ضَرَاعَةً إِذْ لم يكن غير الخضوع وفاء

وتبوأوا دار الخلافة ملجأً فَلَهُمْ بِعَقْوَةِ بَابِها اسْتِجْدَاءُ

فَعُيُونُهُمْ صُورٌ وَوَقْعُ حَدِيثِهِمْ هَمْسٌ وَرَجْعُ كَلاَمِهِمْ إِيمَاءُ

رَهَباً فَعَافٍ شَاقَهُ بَذْلُ النَّدَى رَاجٍ وَطَاغٍ سَاقَهُ اسْتِعْفَاءُ

عَلِمُوا مَوَاقِعَ ذَنْبِهِمْ مِنْ عَفْوِهِ فَاسْتَشْعَرُوا الإِحْسَانَ حِينَ أَسَاءُوا

لا يَحْسَبَنَّ الرُّومُ سِلْمَكَ رَهْبَةً فَالزِّنْدُ لِلنِّيرَانِ فِيهِ ثَوَاءُ

لَمْ تُغْمَدِ الأَسْيَافُ مِنْ وَهَنٍ بِهَا لِكِنْ نُفُوسٌ أُجِّلَتْ وَدِمَاءُ

نَامَتْ عَلَى شِبَعٍ وَقَدْ سَالَمْتَهُمْ وَعِلاَجُ فَرْطِ البِطْنَةِ الإِعْفَاءُ [1]

يصور لنا المقطع السابق سياسة الممدوح في التعامل مع أعدائه، القائمة على المهادنة ، ولكن الشاعر يجعل من تلك المهادنة والسلام، مهادنة الفرسان الذين لم يجنحوا إلى السلم خوفاً أو انكساراً وهزيمة، بل جنحوا إلى السلم وهم أقوياء، ويبالغ الشاعر في منح ممدوحه مسوغات السلام، عندما يجعل أعداءه يطلبون ذاك السلام، ويرجون نواله، فيبدأ المقطع بوصف حالهم المزرية نتيجة الحرب، فهم قوم قد سئموا من الموت الذي جعله الممدوح يحيط بهم فعافت نفوسهم الحرب والموت، لذلك جاءوا طالبين المهادنة والسلم، بل إن دروعهم جاءت ضارعة خاضعة كليلة قد ملت الحرب، لذلك صور الشاعر حال هؤلاء الرسل وهم يستجدون السلام في ساحة دار الخلافة، بحال المتأملين الذين يرجون الإحسان والصفح من الممدوح . ثم يقدم الشاعر المسوغات التي جعلت الممدوح يهادن أعداءه، فهي ليست خوفاً منهم، كما أن إشارته إلى توقف القتال في قوله (لم تغمد الأسياف...) ليست عن ضعف ووهن، وإنما الهدنة هي تأجيل لموت الأعداء فقط، واستراحة محارب قتل من الأعداء أعداداً كبيرة جعلته يصاب بالتخمة، ومن هنا كانت الاستراحة مطلوبة تتمثل بالمهادنة وتأجيل قطف أرواح الأعداء إلى أجل مسمى.

([1]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 94، العقوة، الساحة والمحلة.

ثم ينتقل الشاعر للإشادة بسجايا الممدوح، فيشيد برجاحة عقله التي على الحجة والقوة في الرأي لذلك فهي دوماً تبزّ آراء الآخرين وتضعفها ، فيقول:

يَا نَيِّراً لَوْلاَ تَوُقُّدُ نُورِهِ هَفَتِ الحُلُومُ وَفَالَتِ الآرَاءُ[1]

ولم يقتصر الشاعر على مدح السلطان الغرناطي، وإنّما مدح قومه لذلك نراه يضمن مدحته الأشادة بمناقب قومه آل نصر، فيقول:

لِلَّهِ قَوْمُكَ آلُ نَصْرٍ وَالْقَنَا قِصَدٌ وَأَجْسَامُ العِدَى أَشْلاَءُ
الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ يَوْمَ الْمُلْتَقَى وَالْمُطْعِمُونَ إِذَا عَدَتْ شَهْبَاءُ
سِيمَاهُمُ التَّقْوَى أَشِدَّاءٌ عَلَى الْ كُفّارِ فِيمَا بَيْنَهم رُحَمَاءُ
نَصَرُوا الْجَزِيرَةَ أَوَّلاً وَنَصِيرُهَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرَحْبِهَا الأَنْحَاءُ[2]

فهم قوم يتمتعون بصفات قل أن تجتمع في قوم آخرين، فهم أشداء أقوياء في الحرب، يصيبون خيول الأعداء في مقتل، وهم في الوقت نفسه كرماء سمحاء في السلم، يجودون على الفقراء إذا أصابتهم شدة ولمت بهم نائبة. كما أنهم يتسمون بالإيمان والتقوى والإيمان، لذلك فهم يحاربون الكفر أينما حلّ، وهم رحماء فيما بينهم. ولعل الصفة الأهم التي يتمتع بها آل نصر قوم الممدوح أنهم قوم نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تخلى عنه الناس، وأسهموا في نصرة دينه.

ثم يعود الشاعر إلى صفات ممدوحه، فيصور انتصاراته في الحروب ، ويقدم مسوّغاً دينياً لانتصارات الممدوح وإنجازاته، فالله سبحانه وتعالى نصير المؤمن، والممدوح هذا حاله، فيقول:

وَاللهُ جَلَّ اسْماً لِمُلْكِكَ حزبه وَاللهُ فِيهِ كِفَايَةٌ وَكِفَاءُ
فَمَنِ الْمُدَافِعُ والمَلاَئِكُ حِزْبُهُ وَاللهُ رِدْءٌ وَالْجُنُودُ قَضَاءُ[3]

ولم تخلُ هذه المضامين المدحية من المبالغات التي درج عليها الشعراء عند مخاطبة ممدوحيهم من الملوك والسلاطين، وهذا ما يظهر عند ابن الخطيب عندما يصور شدة بأس الممدوح، حتى يظن القارئ للنص أن هذا الممدوح رجل خارق يتسم بصفات غير عادية لا يتمتع بها غيره من الرجال، وهو منتصر دوماً لا يعرف طعم الهزيمة، وهذا ما نراه في قوله:

([1]) ديوان ابن الخطيب، 94/1. فالت الآراء ضعفت ووهنت.
([2]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 94.
(3) ديوان ابن الخطيب، 94/1.

لَوْ أنَّ بَأسَكَ وَالجُمُوعُ زَوَاحِفٌ فِي مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ غِيضَ المَاءُ
لَوْ أنَّ مِنْ مُسْتَنِّ عَزْمِكَ هَبَّةً فِي الرِّيْحِ مَا نُسِبَتْ لَهُنَّ رُخَاءُ
لِلَّهِ سَيْفُكَ وَالقُلُوبُ بَوَالِغٌ ثُغَرَ الحَنَاجِرِ والنُّفُوسُ ظِمَاءُ[1]

فبأس الممدوح شديد جداً يغيض الماء، وعزمه القوي لو كان في الريح لما عرف عنها الرخاء، وسيفه دوماً بالغ ثغر الحناجر.

وهذا ما نلحظه في تصويره نشر الممدوح للأمن بين الناس، عندما يقول:

لَرَفَعْتَ ظِلَّ الأَمْنِ خَفَّاقاً فَقَدْ كَادَتْ تَسِيرُ مَعَ الذِّئَابِ الشَّاءُ[2]

ثم يعدد الشاعر في قصيدته صفات أخرى لممدوحه ، فهو نشر السكينة والأمان بين الناس، وقضى على المتمردين، كما أنّه يتصف بالسماحة والعفو لمن طلبه منه،[3] ويختم الشاعر قصيدته بإبراز قيمة مدحته، وإظهار حبّه للممدوح الذي صار مذهبه الذي لا يحيد عنه فيقول:

أمُؤَمَّلَ الإِسْلاَمِ إنَّ وَسَائِلِي هُنَّ الشُّمُوسُ فَمَا بِهِنَّ خَفَاءُ
مَا لِي سِوَى حُبِّي لِمُلْكِكَ مَذْهَبٌ وَلَرُبَّمَا تَتَحَالَفُ الأَهْوَاءُ[4]

خلاصة القول وبعد هذا العرض يمكن أن نلاحظ أن مديح السلاطين والحكام في عصر بني الأحمر، ظل في قالب الصور التقليدية التي بقيت في إطار إسباغ الصفات على الممدوح كما حددها النقاد، وهي في مجملها تصب في خانة الشجاعة والكرم ونشر العدل، وهزيمة الأعداء، لكن المعنى المضاف تجلى في إسباغ الصفات الدينية على آل نصر انطلاقاً من نسبهم، ونصرتهم للإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جعل الشعراء يتوقفون دوماً عند هذا النسب ويكررونه في مدحهم لسلاطين بني الأحمر .

---

(1) ديوان ابن الخطيب، 94/1. مستن عزمك: حاد عزمك. الثُّغر: ج الثُّغرة: نقرة النحر.
(2) ديوان ابن الخطيب، 96/1.
(3) ديوان ابن الخطيب، 95/1-96.
(4) ديوان ابن الخطيب، 96/1.

الفصل الثالث

مدح الوزراء والقادة والأبطال والعلماء والأعيان

أولاً: مدح الوزراء :

برز إلى جانب مدح الملوك مدح وزرائهم، فالشعراء يحرصون على الوصول إلى أصحاب النفوذ والمال، ولهذا نرى العديد من القصائد المدحية في وزراء شغلوا مناصب مهمة في الدولة، فالوزير حسب تعريف الماوردي هو: (عون على الأمور، وشريك في التدبير، وظهير في السياسة، وملجأ عند النازلة..)،[1] ومنهم ذو الوزارتين محمد بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي، المعروف بابن الحكيم، والوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير ابن زمرك .ولو أمعنا النظر في أشعارهم لوجدناها تذكر الكرم في جملتها، فيبدأ الشاعر بذكر محاسن ممدوحه وتمجيد مقامه العالي، يقول يوسف بن علي الطرطوشي، ويكني أبا الحجاج، في مدح الوزير ابن الحكيم:

يا أيُّها السّيدُ الأعلى الذي يدُهُ حازتْ ندى السحبِ مَسْكوباً بمسكوبِ
فلو سألنَا بلادَ الله عن كرمٍ فيها لكفيّه والأنواءِ منسوبِ
لقلن إن كان جودٌ لا يُضَافُ لذي الوزارتين فجودٌ غير محسوبِ
فالعودُ جنسٌ ولكن في إضافتِهِ للهندِ يختصّ عودُ الهندِ بالطيبِ[2]

وتعددت الأشعار في مدح الوزراء ولكنَّها لا تخرج في جوهرها عن هدف واحد، وهو إرضاء الممدوح من خلال إظهار مكانته أو صفاته التي جعلته يتقلد هذا المنصب، فهو أهل له لما تميز به من الكرم والشجاعة والخبرة السياسية، يقول لسان الدين بن الخطيب في مدح الوزير عمر بن عبد الله بن سعيد الذي كان وزيرا للسلطان أبي سالم:

تَقولُ ليَ السُّراةُ وقدْ أجَدَّتْ أخَبْلاً تشْتَكي قُلْتُ اشتِياقا
إلى الغَيْثِ الذي إنْ شحّ غيْثٌ فمِنْ يمْناهُ يُنْدَفِقُ انْدِفاقا
إلى اللّيْثِ الذي راعَ الأعادِي وأمّنَ رِفْقُ سِيرتِهِ الرِّفاقا
إلى حبْرِ السّياسَةِ لا يُجارَى ولا يَبْغِي مُعارِضُهُ اللّحاقا [3]

([1]) الماوردي، قوانين الوزارة، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ومحمد سليمان داود، مؤسسة شبان الجامعة، الإسكندرية، ط2، 1978: 27.

([2]) ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 365- 366.

(3) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 2/ 707.

ومن هذا ما جاء عند القاضي عبد الله بن خديم اللخمي الغرناطي في مدحه للوزير لسان الدين بن الخطيب، وحملت أشعاره المعاني ذاتها فلم يختلف في مدحه عن سابقيه يقول:

أيا سيِّدي الأعلى وشمسُ هدايتي ... ووجهة تعظيمي وروضة إيناسي
لساني نبا عن شكر آلائِكَ التي ... توالتْ فآلت أن تُقيِّد أنفاسي
ومَنْ لي بمدح في معاليك منصفٍ ... وقد جلَّ مدُّ البحر عن قسط قسطاس[1]

وقد تتوقف مدحة الوزراء عند نسبهم وحكمتهم، والتفصيل في صفة الكرم التي يتحلون بها وهي صفة مكررة عند الشعراء في مدح الوزراء، يقول ابن الخطيب في مدحه للوزير ابن الحكيم:

أنُورَ سَنَاءٍ لاَحَ فِي مَشْرِقِ الْغَرْبِ ... وَفَرْعَ اعْتِلاَءٍ لاَحَ فِي دَوْحَةِ الْعُرْبِ
وَوَارِثَ أَعْلاَمِ الْعُلَى نَشِبَ النَّدَى ... وَمُوقِدَ نارِ الْبِشْرِ فِي ظُلَمِ الْكَرْبِ
نَطَقْتَ فَحُزْتَ الْحُكْمَ فَصْلاً خطَابُهُ ... يُقَلَّبُ مِنْ وَشْيِ الْبَلاغِةِ فِي عَصْبِ
وَمَنْ كَأَبِي بَكْرٍ عَمِيداً مُؤَمَّلاً ... خُلاَصَةَ شِعْبِ الْعِلْمِ نَاهِيكَ مِنْ شِعْبِ
كَفِيلٌ بِنَيْلِ الْجُودِ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... وَصُولٌ إِلَى الْغَايَاتِ فِي الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ
وَأَيُّ انْسِكَابٍ فِي سَحَائِبِ كَفِّهِ ... إِذَا كَلِحَتْ شَهْبَاءُ عَنْ نَاجِرِ الْجَدْبِ
وَأَيُّ مَضَاءٍ فِي لَطِيفِ طِبَاعِهِ ... كَمَا سَكَنَ التَّصْمِيمُ فِي ظُبَةِ الْعَضْبِ
سُلاَلَةُ أَعْلاَمٍ وَفَرْعُ مَكَارِمٍ ... بِهِمْ فَلَكُ الْعَلْيَاءِ دَارَ عَلَى قُطْبِ
وأنت من الصيد الذين سمت بهم ... أَرُومَةُ لَخْمٍ فِي حَدَائِقِهَا الْغُلْبِ
إِلَى عَمْرِو هِنْدٍ حَيْثُ يَخْتَصِمُ الْعُلَى ... وَيُشْهَدُ نَصْلُ السَّيْفِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ
فَمَاذَا عَسَى أُحْصِي وَمَاذَا عَسَى أَفِي ... أَيُنْضِبُ لُجَّ الْيَمِ مُسْتَنْزَرُ الشُّرْبِ
عَلَى أَنَّنِي مَهْمَا اقْتَضَبْتُ بَدِيهَةً ... عَلَى خَبَرِ الْعَنْقَاءِ إِنْ ذُكِرَتْ تُرْبِي[2]

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة في من لقيناه الأندلس من شعراء المئة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983: 144.

([2]) ديوان الصيب والجهام، 265.

ويشيد عبد الكريم القيسي[1] في مدحه للوزير أبي إسحاق إبراهيم بن عبد البر[2] بخلال الممدوح التي تمثل في مجملها صفات الوزير القائم على أمور المسلمين؛ فيصفه بصفات الحلم والعلم وشرف النسب وعلو الهمة، وتقريب الصالحين طاعة لله، وهو وقور طليق الوجه، يعفو عند المقدرة ويكرم ذوي الحاجات، ذو عقل راجح ونظرة ثاقبة؛ ولذا فالسلطان يرجع إليه فيستشيره في جل أموره وهو بهذه الصفات الجليلة مثال لمن يوكل إليه شؤون المسلمين كما أمر الدين يقول:

حليمٌ عليمٌ طاهر العرض طيب ... إمام همام للمعالي مرشحُ
قريبٌ بعيدٌ لا يزال ولم يزل ... فيقرب في ذات الإله وينزحُ
وقار كطود في سكون ورفعة ... وبشر كزهر الروض أو هو أملحُ
صفات كمال أحكم الدين رصفها ... أحاديثها بين الملوك تصححُ
إذا جاءه للعفو والصفح مذنبٌ ... يجودُ بما يعفي فيعفو ويصفحُ
وإن أمّه للمنّ والمنح مسعد ... يجده بما يهوى يمن ويمنحُ
وإن قاسَ قومٌ عقلهُ بعقولهم ... أصابوا له عقلا لدى الخبر أرجحُ
لآرائه في المعضلاتِ إصابة ... إذا أصدر السلطانُ عنهن ينجحُ[3]

ومن النماذج التي جمعت كل تلك المعاني المختلفة نتوقف عند قصيدة ابن عرفة اللخمي[4] في مدح ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، وقد ابتدأها بغزل مناسب لغرض المدح قال فيه:

تَملّكتَ رقّي بالجمال فأجمل ... وحكّمْتَ قلبي بجَوْرك فاعدل
أنتَ الأمير على الملاح ومن يَجُرْ ... في حكمه إلا جفونك يُعزل
إن قيلَ أنتَ البدرُ فالفضلُ الذي ... لك بالكمال ونقصِه لم يُجهل

([1]) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الغرناطي، كان حياً سنة 835هـ، وتتجلى أهميته البالغة إلى جانب غرابته في أنه عاش في الأندلس في أواخر دولة الإسلام، وقضى مدة من حياته أسيراً عند الاسبان، ينظر بعض المعلومات عنه في مقدمة ديوانه. انظر: ديوان عبد الكريم القيسي (توفي في القرن التاسع)،تحقيق: جمعة شيخة، محمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، 1988: المقدمة.

([2]) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد البر الوزير الحاجب على ولاية بسطة، الإمام بمسجدها.

([3]) ديوان عبد الكريم القيسي، 55.

([4]) هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سليمان بن عرفة اللخمي، الفقيه، الرئيس ، حامل مذهب الشعر في وقته، يكنى أبا العباس، توفي سنة 707 هـ ودفن في مقبرة الغرباء بغرناطة. قال ابن الخطيب وصفاً: شعره نمطٌ عال، ومحل البراعة، لطيف الهبوب، غزير المائية، أنيق الديباجة، جم المحاسن)، انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة: 1/ 278 وما بعدها.

لولا الحظوظُ لكُنْت أنت مكانه ولكان دونَكَ في الحضيضِ الأسفلِ
عيناكَ نازلتَا القلوب فكلها إما جريحٌ أو مُصاب المقتل[1]

ثم ينتقل الشاعر إلى تفصيل الخصال التي يتمتع بها الوزير ابن الحكيم، فيقول:

مثلُ الوزيرِ ابنِ الحكيم وما لَهُ مثلٌ يقوم مقامه مُتمثَّلِ
سادَ الورى بحديثِهِ وقديمِهِ في الحالِ والماضي وفي المستقبلِ
من بيتِ مَجدٍ قد سمَتْ بقبابِهِ أقيالُ لخمٍ في الزمانِ الأولِ
سامي الدعائم طال بيت وزارة وللجاشعِ وأبي الفوارس نهشل[2]

فالشاعر في بداية مدحه يرى أن سمات وخصال هذا الوزير تعيي الشعراء عن إيجاد شبيه له يمكن أن يعينهم على وصف صفاته، فهو ساد الورى في كل الأزمان بما يتمتع من بلاغة ونسب عريق فصّل الشاعر في ذكره ، وهذا ما جعله جديراً بالوزارة وأهلاً لها.

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف استقباله للناس بوجه بشوش، مشرق، ويصور تفاؤل الوفود القادمة عليه بنيل عطائه وكرمه، فالأمل عليه معقود دوماً، يقول:

يَلْقَى الوفود ببَسْط وجهٍ مشرقٍ تجلو طلاقتهُ هُموم المُجْتَلي
فلآمِلي جَدْوَاهُ حَوْلَ فنائِهِ لقْط القطا الأسرابِ حولَ المَنْهل[3]

أما العدل فهو صفة ملازمة للممدوح، لذلك فإن الشاعر يسهب في شرح هذه الصفة في ممدوحه، يقول:

وإذا نحى بالعدلِ فصل قضية لم تحظ فصلاً من إطالة مُفْصلِ
يقضي على سخَب الخصوم وشَغْبهم ويقيم مغريهم مقام المزمل
ويلقّن الحج العَييّ تحرجاً من رامحٍ عند اللجاج وأعزل
فإذا قضى صور المُحقِّ بحقّهِ عنه وحاق عقابه بالمُبْطلِ
عَجِلٌ على من يستحق مثوبةً فإذا استحق عقوبة لم يَعْجَل[4]

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 279- 280.
(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 281.
(3) الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 281- 282.
(4) الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 282.

فالممدوح قادر على فصل قضايا المتخاصمين التي أعيت غيره، ولم يجد لها حلاً، برجاحة عقله وعلمه الواسع، ويقيم العدل بحكمه بينهم، معتمداً على الحجج المفحمة، فينصف المظلوم، ويعاقب الظالم، ولا يتردد في تعجيل المثوبة لمستحقيها، وفيه أناة في إصدار أوامر العقوبة.

ثم تأتي خاتمة المدحة بالدعاء للوزير، يقول:

يا كافي الإسلام كل عظيمة ومعيده غضاً كأن لم يذبل

وهكذا نرى أن الشعراء في مدحهم للوزراء ركزوا على ما يتمتعون به من صفات، لعل أهمها صفة الكرم، وأصالة النسب، والصفات التي يجب أن يتمتع بها الوزير من حنكة ورأي صائب وعلم وعقل راجح.

ثانياً: مدح القادة والأبطال:

ومدح الشعراء قادة الجيش وبطولاتهم، فقد اتسمت مرحلة بني الأحمر بكثرة المواجهات مع الفرنجة، ومن هنا توقف الشعراء عند بطولات القادة في تلك الحروب والمواجهات، فسجلّوا بطولاتهم، وهذا ما يمكن أن نلحظه عند ابن فركون في مدح أبي الحسن معز الدولة علي أخي ملك غرناطة يوسف الثالث عند عودته منتصراً في معركة جبل الفتح، في قوله :

فبُشْرى بهذا الصُّنع يا ملِكَ الهُدَى وهُنّئْتَ هذا الفتحَ يا جبَلَ الفتح
لكَ الدولةُ العُليا عليٌّ مُعِزُّها بهدِّ الذي أعْلتْ يَدُ البغْي من صرْح
وأتْبَعْتَهُ غُرَّ الكتائِبِ مُنْعِماً فكمْ حلّ من سَفْحٍ بما هزّ من صَفْح
فما قَصرتْ فيه الجيادُ عن المَدا ولا نُهْنِهَتْ أسْدُ الرجالِ عن الكَفْح
وتَشْدو طُيورُ اليُمْنِ فيها وإن غدَتْ خُطوباً على الأعداءِ رائِعةَ الفَدْح
يُبدِّدُ شمْلَ المُعتَدينَ اجتِماعُها فذاكَ إلى صدْعٍ وتِلْكَ إلى صدْح
فأطْلَعْتَ فيهمْ من جُنودِكَ أنجُماً تجلّتْ وليلُ الرّوعِ منْسَدِلُ الجِنْح [1]

فانتصار هذا القائد في تلك المعركة هي البشرى العظيمة التي نُقلت إلى الخليفة، وهنا تبرز دلالة أن قادة الجيش هم من يوطدون الحكم، فالقائد علي أعز دولة بني الأحمر بانتصاره، ويحطم يد البغي، وهو الذي يقود الكتائب الغر، وهو الذي يتمتع بقوة ضرب الأعداء وفي الوقت ذاته يمتلك صفة الصفح، ومن هنا لم تغادر طيور اليمن معركة قادها، وهي الطيور التي تبشر بالنصر، وهو يمتلك القدرة على تبديد شمل الأعداء ببث الرعب في قلوبهم.

([1]) ديوان ابن فركون، 181.

ولما كان أغلب قادة الجيوش من أمراء بني الأحمر ، فقد خصهم الشعراء بمدحهم، فهذا ابن زمرك يمدح شجاعة قادة الجيوش من أمراء آل نصر وبسالتهم القتال، وبراعتهم أثناء المعارك، والبطولات التي يقومون بها، يقول في مدح الأميرين سعد ونصر في ميدان القتال:

يا آلَ نصرٍ أنتم سُرُجُ الهدى ... في كلّ خطبٍ قد تجهّم مظلم
الفاتحون لكلّ صَعبٍ مقفلٍ ... والفارجون لكلّ خطبٍ مبهم
والباسمون إذا الكماةُ عوابسٌ ... والمقدمون على السوادِ الأعظمِ
أبناءَ أنصارِ النَّبيّ وحزبه ... وذوي السوابق والحوار الأعصمِ
سلْ عنهمُ أُحُداً وبدراً تلقَهُمْ ... أهلَ الغَناء بها وأهلَ المغنمِ[1]

نلاحظ هنا تقاطع مدح قادة آل نصر مع مدح ملوكهم بصفة تمجيد نسبهم ونصرتهم للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن المعاني التي أشاد بها الشعراء في مدحهم للقادة ، شجاعتهم ، وقدرتهم على بث الرعب في قلوب الأعداء، وهذا ما نجده عند عبد الله بن رضوان النجاري[2] الذي يصور حالة الرعب والذعر التي دبت في صفوف الأعداء عندما يشاهدون الأسطول الذي يقوده هؤلاء القادة الذي يتميز بكثرته وقوته، فيقول:

يبدّدُ جَمعَ الكفرِ رعباً وهيبةً ... كما بدّدَتْ منه اليمينُ النوافلا
ولما استقامَتْ بالزقاق أساطلٌ ... واستقلتْ للسعودِ محافلا
رآها عدوُّ الله فانفضّ جمعُهُ ... وأبصرَ أمواجَ البحارِ أساطلا
ومن دُهشَ ظنّ السواحلَ أبحرا ... ومن رعبَ خالَ البحارَ سواحلا
ومن جندكم هبّتْ عليه عواصفٌ ... تدمّر أدناها الصلاب الجنادلا
تُفرّقُهم أيدي سبا وتبيدهم ... فقد خلفت فيهم حساما وذابلا
وعهدي بمرّ الريح للنارِ موقدا ... فقد أطفأتْ تلك الحروبُ المشاعلا
وكان لهم بردُ العذابِ ولم يكن ... سلاماً وما كادوه قد عاد باطلا[3]

([1]) ديوان ابن زمرك، 112.

([2]) هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري، كان من علماء العربية، توفي سنة(757 هـ). انظر: الإحاطة: 3/ 443. ونفح الطيب: 6/ 107.

([3]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 339.

لقد استطاع الشاعر أن يصور الرعب الذي بثه ذاك الأسطول في نفوس الأعداء، ففرق شملهم، وبث الرعب فيهم، لقد كانت مصيبة الأعداء في تلك المواجهة عظيمة جداً، فقد فقدوا قدرتهم على التحكم والرؤية، فظنوا أن ذاك الأسطول أمواجاً عاتية، فأصابهم الهلع والذعر.

ثالثاً: مدح العلماء:

أما المدحة ذات المستوى العلمي فقد استطاعت أن تكون صاحبة حضور جيد بين مستويات المدحة الأخرى في تلك الفترة، ربما كان ذلك لعدة أسباب لعل من أهمها اكتظاظ الساحة العلمية والأدبية بكثير من العلماء الأفذاذ أمثال لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن ابن خلدون وغيرهما ، وهو الأمر الذي حدا بشعراء تلك الفترة أن يشيدوا بالجانب العلمي والأدبي الذي كان يتمتع به هؤلاء العلماء.

وكثرة العلماء في ذاك العصر جعلت يوسف الثالث يشبههم بالنجوم عندما وصف علماء غرناطة وجنودها بقوله:

يومنا يومُ صباح مشرقٍ فأجيبوا يا نجوم الأفق
بين أبطال جهاد تمتطي للوغى غرَّ الجياد السبق[1]

وقد توقفت مدحة العلماء عند الإشادة بمضامين الكتب التي ألفوها، وأثرها في الناس وفضلها عليهم، وهذا ما فعله ابن الخطيب عندما مدح العالم محمد بن أحمد بن أبي بكر العجيسي[2] لما شرح كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) وهو أعظم كتب القاضي الإمام الحافظ عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (544)، متضمناً المدح الثناء على الكتاب المذكور، يقول:

شِفاءُ عياض للصُّدورِ شِفاءُ وليس بفضلٍ قد حواه خفاءُ
هديّةُ برٍّ لم يكن لجَزيلها سوى الأجر والذّكر الجميل كَفاءُ
وفي لنبيّ اللهِ حقَّ وفائهِ وأكْرمُ أوصافِ الكرام وفاءُ
وجاءَ به بحراً يقولُ بفضلِهِ على البحر طَعْمٌ طيبٌ وصفاءُ
وحقُّ رسولِ الله بعد وفاته رعاه وإغفالُ الحقوق جفاءُ

(1) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث (أبو الحجاج)، تحقيق: عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2،1965: 182.

([2]) ترجمة مفصلة عنه في الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 103 وما بعدها.

هو الذُّخرُ يغنى في الحياة عَتاده ويَثرُك منه لليقينُ رفاءُ

هو الأثرُ المحمودُ ليس يناله دُثُّور ولا يُخْشى عليه عَفاءُ، حَرَصْتُ على الإطناب في نشر فضلِهِ وتمجيده لو ساعدتني فاءُ[1].

والحق أن إعجاب ابن الخطيب بهذا الكتاب يبدو واضحاً، فقد أفرد له قصيدتين غير هذه القصيدة، الأولى افتتحها بقوله:

أأزاهير رياض أم شـــفاءٌ لعيـاض
جدل الباطل للحق بأسياف مـــواض
وشفى من يشتكي الغلة في زرق الحياض

أي بنيان معار آمن فوق انقضاض
أي عهد ليس يرمى بانتكاث وانتقاض
ومعان في سطور كأسود في غياض
وشفاء لصدور من ضنى الجهل مراض[2]

أكد في هذه القصيدة المعاني السابقة، وأكد ما يحويه الكتاب من فضل وعلم، وهذا ما فعله في القصيدة الثانية التي اختصت بفضل الكتاب وصاحبه.[3]

و من النماذج الدالة على احتفاء الشعراء بالعلماء، وعلى علاقة المودة والصداقة التي جمعتهم بهم، يمكن أن نتوقف عند احتفاء الشعراء بالمؤرخ ابن خلدون ، فقد مدحه ابن زمرك بمدحة مطولة جاء فيها:

وما أنْت إلاَّ الشمسُ في علو أفقها تفيدُك من قرب وتَلْحظُ من بُعدِ
لقد سرني أنْ لُحْتَ في أُفُق العلا على الطائر الميمون والطالع السعدِ
طلعتَ بأفق الشرق نجمَ هدايةٍ فجئت مع الأنوار فيه على وعدِ
بقيتَ ابنَ خلدونٍ إمام هدايةٍ ولا زلتَ من دنياك في جنَّة الخُلدِ[4]

([1]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 127.
(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 127.
(3) انظر القصيدة في الإحاطة، 3/ 128 وما بعدها.
([4]) ديوان ابن زمرك، 381- 382- 383.

فالشاعر يؤكد المكانة العالية التي حظي بها ابن خلدون في عصره فقد طارت شهرته إلى المشرق والمغرب. وهذا ما جعل الشعراء يحتفلون بقدومه ويشيدون بعلاقات المودة والصداقة التي جمعهتم به، فهذا ابن الخطيب يرحب به لما حل بغرناطة قائلاً:

حَلَلْتَ حُلوُلَ الغَيْثِ فِي البَلَدِ المَحْلِ عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَهْلِ
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدّأ والكهل
لَقَدْ نَشَاَتْ عِنْدِي لِلُقِيَاكَ غِبْطَةٌ تُنَسِّي اغْتِبَاطِي بِالشِّبْيَةِ وَالأَهْلِ(1)

وقد صور ابن الخطيب علاقة الصداقة التي جمعته مع ابن خلدون، لذلك نراه يخاطبه لما ارتحل عنه بقوله:

بَنَفْسِي وَمَا نَفْسِي عَلَيَّ بِهَيْنَةٍ فَيُنْزِلُنِي عَنْهَا المِكَاسُ بِأَثْمَانِ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي وَصَمَّ لأَنَّتِي وَرَاشَ سِهَامَ البَيْنِ عَمْداً فَأَصْمانِي
وَقَدْ كَانَ هَمُّ الشَّيْبِ لاَ كَانَ كَافِياً فَقَدْ أدنَى لَمَّا تَرَحَّلَ هَمَّان
شَرَعْتُ لَهُ مِنْ دَمْعِ عَيْنَي مَوْرِداً فَكَدَّرَ شُرْبِي بِالفِرَاق وَأَظْمَانِي
حَلَفْتُ عَلَى مَا عِنْدَهُ لِي مِنْ رِضىً قِيَاساً بِمَا عِنْدِي فَأَحْنَثَ أَيْمَانِي
وَإِنِّي عَلَى مَا نَالَنِي مِنْ قِلىً له لأَشْتَاقُ مِنْ لُقَيَاهُ نُغْبَة ظَمْآنِ
وَلاَ اسْتَشْعَرَتْ نَفْسِي بِرَحْمَةِ عَابِدٍ تُظَلِّلُ يَوْماً مِثْلَهُ عَبْدَ رَحْمَان
وَلاَ شَعَرَتْ مِنْ قَبْلِهِ بِتَشَوُّقٍ تَخَلَّلَ مِنْهَا بَيْنَ رُوحٍ وَجُثْمَان(2)

وقد يبرز الشعراء في هذا النوع من المدح مشاعر التقدير والوفاء للعلماء كنوع من رد الجميل لهم، أو الاعتراف بفضلهم والإشادة بعلمهم وبمكانتهم، وهذا ما فعله ابن الخطيب الذي يقول في مدح الإمام مالك بن أنس وهو من كبار أئمة الحديث:

كَفاهُ فضْلاً أنِ امْتاحَتْ مَعارِفُهُ منْ هائِلِ اليَمِّ لا يُدْرى بمِقْياسِ
بحْرُ العُلومِ الذي منْ دونِهِ وكفَتْ خُلْجانُ عِلْمٍ وما في الحقِّ منْ باس
إذا الجَوارحُ في حُسْنٍ وفي حرَكٍ صحّتْ أفاعيلُها فالفَضْلُ للرّاس
وإنْ تُنوزِعَتِ العَلْياءُ وادُّعِيَتْ لمالِكٍ مِلْكُها منْ غيْرِ إلْباس
وكُلّهُمْ شُهُبٌ للدّينِ هادِيَةٌ فلا تكُنْ لحُقوقِ النّاس بالنّاس(3)

---

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 499- 500.
(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 593- 594.
(3) ديوان ابن الخطيب،2/ 736.

فالشاعر يذكر فضل الإمام مالك بن أنس، ويراه بحر العلوم الذي غرف الناس منه، وهو صاحب المرتبة العليا التي لا يدانيه فيها أحد ولا ينافسه فيها، ففضله واضح بيّن لا لَبْس فيه.

أما الفضائل التي ركز عليها الشعراء في هذه المدحة فتتمثل بالتغني ببلاغتهم وفصاحتهم، والمجد الذي وصلوا إليه بعلمهم، وسمو منزلتهم بين الناس، وكانت فضيلة العلم من أكثر الصفات في مدح العلماء، كما نجد عند ابن الخطيب في مدح أستاذه ابن الجياب:

يا واحِدَ الدّهْرِ في عِلْمٍ وفي عمَلٍ وعُمْدَةَ المُلْكِ في ورْدٍ وفي صَدَرِ
يا صاحِبَ القَلَمِ الأعْلى الذي نسخَتْ يَراعُهُ الصُّفْرُ حُكْمَ الصّارِمِ الذّكَرِ[1]

ويرى فيه صاحب الحكمة كلقمان الحكيم، ومنطق قس بن ساعدة، وبحر الجود، والنار التي يقتبس منها طلبة العلم، فيقول:

يُريكَ حِجَى لُقْمانَ في حِلمِ أحْنَفٍ ومنْطِقِ قُسٍّ تحْتَ حِكمَةِ هُرْمُسِ
فإنْ شِئْتَ في بحْرِ النّدى منْهُ فاغْتَرِفْ وإنْ شِئْتَ في نارِ الهُدَى منْهُ فاقْبِسِ[2]

وصف المنزلة العلمية التي وصلوا إليها، يقول ابن الخطيب في وصف معلمه أبي القاسم الحسني:

لَكَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ وَفَضْلُكَ لَيْسَ يَحْتَجِبُ
وَدُونَ عُلاَكَ مَا تُنْمَى إِلَيْهِ السَّبْعةُ الشُّهُبُ[3]

ثم يعترف بفضله عليه :

سَجَايَاكَ تَقْضِي أَنَّكَ ابْنُ مُحَمَّدٍ أَيُجْحَدُ حَقٌّ وَالشَّهَادَةُ قَائِمَهْ
فَيَا مُلْبِسِي منْ فَضْلِهِ قُرشِيَّةً أُتِيحَ لَهَا مِنْ كَفِّهِ راقِمَهْ
بِأيِّ لِسَانٍ أمْ بِأيِّ بَلاَغَةٍ أُقَضِّي فُرُوضاً منْ حُقُوقِكَ لاَزِمَهْ
فَدُمْ وَاحِدَ الآحَادِ فِي ظِلِّ غِبْطَةٍ وَلاَ بَرِحَتْ عَيْنُ الرَّدَى عَنْكَ نَائِمَهْ[4]

نلاحظ أن الشعراء في مدحهم العلماء قد ركزوا على وصف علمهم الغزير، والمكانة التي احتلوها بعلمهم، وفضل علمهم على الناس، وكتبهم التي بقيت منارات يهتدي بها طلبة العلم.

([1]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 389.
([2]) ديوان ابن الخطيب، 2/ 736.
([3]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 123- 124.
([4]) ديوان ابن الخطيب، 2/ 562.

رابعاً: مدح الأعيان:

ويشمل مدح الأعيان في هذا العصر مدح الرجال الذين تبوأوا مكانة اجتماعية في ذاك العصر، كالخطباء وأصحاب ديوان الإنشاء والقضاة وغيرهم. ومن ذلك مدح يوسف الثالث الخطيب الفاضل أبا عثمان الألبيري خطيب الحمراء قائلاً:

قد اتخذت بخطاب الخطيب ... جواباً يُرقى لأسنى محل
يُقابلهُ بالقبول الذي ... يُناسب قدر الوجيه الأجل
إذا ما ارتقى ذروةَ المنبرين ... ترَّفع عن خطأ أو خطل
وأنى يُضاهي يَراعٌ له ... إذا جال جولة شهم بطل
ومن ذا سواه لوصفي حُلاه ... وقد طابق القولُ منه العمل
أفادَ الكثير وأهدى الخطير ... فلم يُبق للغير إلا الأقل
فيا من أعاد وأبدى الجميل ... حديثك ترْداده لا يُمَلْ
دعاؤك أنفسُ ما يُقتنى ... لحزب أقام ورَكب رحل [(1)]

فقد تضمنت القصيدة الإشادة بالصفات العلمية التي تحلى بها ذاك الخطيب، فهو صاحب الأجوبة الدقيقة في كل مسألة، وهذا ما رفع من قدره، وهو نادر الخطأ، وهو صاحب بلاغة أوصلته منزلة لا يدانيه أحد فيها، وهو ممن يقرن القول بالفعل والعمل، أفاد الناس من علمه، ومن حديثه الشائق الذي لا يمله السامع، كما أنه صاحب دعاء لكل مناسبة تحل بالقوم.

ومن مدح الأعيان ما قال ابن الخطيب في مدح شيخ الغزاة في الأندلس[(2)]:

يَا جُمْلَةَ الفَضْلِ وَالوَفَاءِ ... مَا بِمَعَالِيكَ مِنْ خَفَاءِ
عِنْدِيَ لِلْوُدِّ فِيكَ عَقْدٌ ... صَحَّحَهُ الدَّهْرُ باكْتِفَاءِ
مَا كُنْتُ أَقْضِي عُلاَكَ حَقّاً ... لَوْ جِئْتُ مَدْحاً بِكُلِّ فَاءِ
فأوْلِ وَجْهَ القَبُولِ عُذْرِي ... وَجَنِّبِ الشَّكَّ فِي صَفَاءِ [(3)]

نلاحظ أن الشاعر يركز في معانيه على صفات الفضل التي تمتع بها شيخ الغزاة، وهي ليست خافية على الناس، وهي ما سمحت له أن يتبوأ تلك المكانة، كما تضمنت إظهار ود الشاعر

([1]) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، 103-104.

([2]) هو علي بن بدر الدين بن موسى، يكنى : أبا الحسين، ولي مشيخة الغزاة بعد سنة 764، واستمر فيها حتى قتل في غزوة جيان، سنة 769، انظر ديوان ابن الخطيب، 1/ 101، الحاشية رقم: 51.

([3]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 101.

لذاك الرجل الذي تعجز القصائد عن إدراك صفاته، لذلك نراه يقدم عذره عن تقصير قصيدته في مدحه.

وقد أكثر ابن الخطيب في هذا الغرض ومنه ما قاله في مدح صاحب الإنشاء بالمغرب أبو القاسم بن رضوان:

إنَّمَا أنْتَ لِلْبَرِيَّةِ كَهْفٌ وَمَلاذٌ فِي شِدَّةٍ وَرَخَاءِ
فَأعِنِّي وَاصْرِف لِتَجْدِيدِ مَا أص دَرْتَ وَجْهَ الأمَاجِدِ الحُسَبَاءِ[1]

وربما أسهمت الظروف التي عانى منها ابن الخطيب بعد هربه من غرناطة، في الإكثار من هذا النوع من المديح فهو يبحث عن الأمان، لذلك نراه يطلبه من الأشخاص الذين مدحهم، فهو في الأبيات يصف صاحب ديوان الإنشاء بأنه كهف، يلوذ به الهارب، وطالب الأمان، كما يلوذ به الإنسان الآمن، ويتخذ من ذلك ذريعة لطلب النجدة منه.

ومن مدح الأعيان في غرناطة ما نجده عند القاضي أبي عبد الله الأليري الذي يمدح ابن فركون عند انخراطه قي ديوان الإنشاء، فيقول:

هنيئاً يا سليلَ أولي النجابهْ بما قُلّدتَ من سامي الكتابهْ
ويَهْنيها فقد ظفرَتْ بكفءٍ حَوَى من كلّ مَعْلُوّة لُبابَهْ
أراكَ اللهُ فيها ما تَمَنّى من النّعَم الجِسام المُستطابَهْ
وزادكَ بعدَها جاهاً عظيماً تنالُ به الخَطابَة والحِجابَهْ [2]

فابن فركون شاعر، وأديب، وهاتان الصفتان أهلتاه ليتولى ذاك المنصب، ومن هنا يركز الشاعر في مدحه له على هذه الصفات، فهو كفءٌ لهذه المنزلة وأهل لها، ثم يأتي دعاء الشاعر له أن يتبوأ من المناصب أعلاها.

ومدح الشعراء القضاة كونهم يمثلون الجهة القائمة على تقويم المجتمع من خلال أحكامهم القضائية الدينية التي يرجع إليها الحكّام في تطبيق الحدود وإقامة الشريعة، ومن هنا كانت المضامين المدحية منسجمة مع ما ذهب إليه النقاد[3] في رسم صورة القاضي العادل. على وفق ما نجد في مديح ابن الزقاق البلنسي للقاضي أبي الفضل إذ يقول:

([1]) ديوان ابن الخطيب، 2/ 707.
([2])مقدمة ديوان ابن فركون ، 13.
([3]) العمدة، 135.

قاضٍ إذا يممتْ عدلَ قضائهِ لم أعط جور الحادثات قيادي
متواضعٌ- واللهُ يرفع قدرهُ عن أن يقاس بسائرِ الأمجادِ
ما قلد الأحكام دُون تقي وهلْ يتقلد الصمصام دون نجادِ
طلق المحيا واليدين إذا احتبى وإذا حبا رحبُ الندى والنادي[1]

فالممدوح قاض عادل، متواضع يراعي في أحكامه الله سبحانه وتعالى، لا يعبس في وجوه الناس، كريم الخَلق والخُلق.

أما القاضي أبو بكر بن منظور؛ فهو في رأي الشاعر عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري[2]- ت 783هـ- قاض يتحرى الدقة في أحكامه؛ فلا تلتبس عليه الأمور؛ إذ يميز بفطنته وفراسته بين الحق والباطل؛ فترى الناس في مجلس قضائه سواسية؛ فلا يفرق في حكمه بين قوي وضعيف؛ ولهذه الصفات الحميدة كان الممدوح ذخراً وفخراً للناس إذا حلت بهم ويلات الفتن والضلالات. وهو فضلا عن ذلك قدوة صالحة يطبق شرع الله في أحكامه كما أن سيرته العطرة تمثلت في ملازمته المسجد والمحافظة على العبادات يقول:

وقاض إذا الأحكامُ أشكل أمرُها جلا لها برأي الحقيقة مرشد
إذا الحق أبدى نوره عند حكمه رأيت له حد الحسام المهند
وان جميعَ الخلق في الحق عندهُ سواسيةٌ ما بين دان وسيد
هنيئا لنا بل للقضاء وفضله بقاض حليم في القضاء مسدد
أمات به الرحمنُ كل ضلالة وأحيا بما أولاه شرعة أحمدِ
وكاين تراه لا يزال ملازماً لأمر بعرف أو لزام بمسجد[3]

والقاضي البياتي في نظر عبد الكريم القيسي بزّ أقرانه من القضاة بما يتمتع به من حصافة وفطنة وفراسة؛ فلا يؤخذ بمظاهر المتقاضين بين يديه، بل يدرك بما أوتي من مواهب، المذنب من البريء؛ فيكشف أمره ويجبره على البوح بما حاول كتمه، وهو إلى جانب ذلك خطيب واعظ يتسابق الناس على الظفر بمجلس علمه وحكمه:

([1]) ديوان ابن الزقاق، 146.

([2]) ترجمته من نيل الابتهاج، 123؛ والتعريف بابن خلدون، 20، 41؛ وجذوة الاقتباس، 247، ونفح الطيب، 8/ 240، الكتيبة الكامنة، 254؛ فيه البخاري بدل النجاري، ولم يشر ابن الخطيب هنا إلى سنة وفاته لأنه توفي في سنة- 783 هـ- اي بعد وفاة ابن الخطيب بسبع سنوات.

([3]) ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة، 3/ 337، والأبيات، 3/ 341.

يدري بفطنتهِ ما الصدرُ يضمره سِراً فيعربُ عما فيه قد هجسا
كأنه عارفٌ بالغيب يعلمه إذا غدا مدعيه يدعى هوسا
فراسة فضحت سر الكتوم كما بدر الدجنة أمسى يفضح الغلسا
إذا ارتقى منبراً للوعظ تحسبه قرماً غدا رَاكباً يوم الوغى فرسا
لله مجلسه يلقي العلوم به وفوز صب إلى إلقائه جلسا[1]

ويمدح ابن زمرك قاضي الجماعة ابن الحسين[2]، فيقول:

لمُستطلع الأنوار تُجلى الغياهبُ ومن منبع الأسرار تُملى المواهبُ
أيَا علمَ الأعلامِ والماجدِ الذي أنافتْ بهِ فوقَ النجومِ المراتبُ
ويا من له من مرتقى الفخر أسرةٌ تُعظّمها أقيالها والذوائبُ
أعندَك أنّا قد حللنا بذروة تسامت ببدر الهدي فيها المراقبُ
يُحلّق نسرُ الأفق دون بلوغها وتسحبُ ذيلَ العجز عنها السحائبُ
تُجالسُنا فيها النجومُ الثواقبُ فتُخجلها منك الحُلى والمناقبُ
وإن سار فكري نحو معنى مُقدّس فإنك فيه دائم الفكر ثاقب
بقيت كما ترضى بأيمن غبطة تقضى بها للمكرمات المآربُ[3]

فابن زمرك يشيد بقاضي الجماعة، فيراه صاحب منزلة عالية لا تُدانى، كما يشيد بأصله فهو من أسرة عريقة، ثم يعود ليؤكد علو ما وصل إليه القاضي من مجد تكلّ النسور عن الوصول إليها، ومناقبه الكريمة تُخجل النجوم ، وكل فكرة سامية ينظر فيها هذا القاضي بفكر ثاقب وعلم واسع ودراية دقيقة، ثم يختم الشاعر قوله بالدعاء للقاضي بالخير واليمن والمكرمات.

([1]) ديوان عبد الكريم القيسي، 41.

([2]) هو محمد بن أحمد بن القاسم بن الحسين توفي بغرناطة سنة (760 هـ) كان مشهوراً في علوم البلاغة والفقه، وهو من أبرز أساتذة الشاعر، قلد القضاء والخطبة بغرناطة. انظر ديوان ابن زمرك: 65 حاشية : 2. وانظر الإحاطة في أخبار غرناطة: 2/ 129.

(3) ديوان ابن زمرك، 66- 67.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

أولاً: اللغة والأسلوب:

لما كان لكل غرض شعري معجمه، الذي يمثل مفتاح القصيدة الذي به تعرف هويته؛ فإن قصيدة المديح الأندلسية لها معجمها، و المعجم الشعري يكون منتقى من كلمات تمثل الركائز التي يقوم عليها النص، أو المحاور التي يدور عليها وصولاً إلى بعض الألفاظ التي شكلت العمود الفقري، أو المحور الأساس الذي بنيت عليه مضامين قصيدة المديح.

وقد انعكس ما شهدته المرحلة النصرية من كثرة الحروب والمواجهات على معجم الشعراء في ذاك العصر، فقد سبب ذلك طغيان مفردات معينة على المعجم المدحي، لعل في مقدمتها الألفاظ المستمدة من مجال الحرب، وما يندرج تحته من ألفاظ أخرى، كتلك الدالة على الخيل والسلاح، من هنا برزت تلك المفردات في المعجم المدحي، يقول ابن الخطيب في مدح أبي الحجاج يوسف الأول:

مُثيرُ رياحِ العزم في حَوْمةِ الوغى ومُختطِفُ الأبطالِ يومَ نزالِهِ[1]

واستعمال هذا المعجم دال على حالة الحرب التي كانت تعيشها غرناطة في مواجهة الأسبان، فصارت تحضر في المعجم المدحي ألفاظ من مثل الجيش والكتائب والسيف، يقول ابن الخطيب مادحاً أبي الحجاج:

فاهْززْ برعبِكَ قبلَ الجيشِ ما جمعوا واضربْ بسعدكَ قبلَ الصارمِ الذَّلق [2]

ومن استعمال مفردات الخيل في سياق الحرب، قول ابن الخطيب مادحاً:

يا قَائدَ الخيلِ المغيرةِ بالضُّحى ومزيرَ رَبْعِ الكُفْرِ كلَّ مُطهَّمِ [3]

ومن ذلك استخدام مفردة السيف في المدح، كما فعل ابن الخطيب عندما جعل سيف ممدوحه منقذاً عندما تبلغ القلوب الحناجر، يقول:

للهِ سيفُكَ والقُلوبُ بوالغٌ تُغَرَ الحَناجِرِ والنُفوسُ ظِمَاءُ [4]

([1]) ديوان ابن الخطيب، 484/1.

(2) ديوان ابن الخطيب، 2/ 692.

(3) ديوان ابن الخطيب، 537.

(4) ديوان ابن الخطيب، 93.

وفي عصر بني الأحمر تنوعت روافد معجم قصيدة المديح تبعاً للخلفية السياسية والفكرية؛ فقد أسهمت الحياة السياسية ذات الطبيعة الجهادية في مواجهة الأسبان، بروز مفردات الجهاد والقتال وما يندرج في مجالهما الدلالي، كما أسهم تركيز الخلفاء على غرض المديح النبوي والاحتفاء بميلاد الرسول (ص) في بروز المفردات ذات الطابع الديني المستمد من الثقافة الإسلامية، وقد عزز هذا الاتجاه أيضا انتماء بني نصر إلى الأنصار الذين ناصروا الرسول (ص) في دعوته، وهذا ما جعل المفردات المستمدة من المجال الديني كثيرة في مدح الشعراء لبني الأحمر، فقد سرت ألفاظ مستوحاة من القرآن الكريم، وظهر هذا واضحاً في المدائح النبوية، كما نلحظ في قول ابن الخطيب:

كدَحت إلى رَبِّ الجمال مُلاقيًا (فيا أيُّها الإنسانُ إنك كادحٌ) [1]

فقد استعان الشاعر ابن الخطيب بقوله تعالى: ((يا أيّها الإنسان إنك كادح إلى ربّك كدحًا فملاقيه)).[2] من أجل تصوير معاناة الرسول (ص) في بداية الدعوة.

وهذا ما يبرز واضحاً في لغة ابن جابر الأندلسي الذي يقول في مدحه للرسول(ص):

بِجَاهِكَ تَبيَّضُ الوُجوه بِشَارةً إذا اغبَّرَ وَجهُ المنتَنِي عَنَكَ واسَودَا[3]

فقد استفاد معجم الشاعر في هذا البيت من الآية التي ترسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة التي تُعقد فيها مقارنة بين المؤمنين والكافرين في قوله تعالى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[4].

وبما أن بني الأحمر يرجعون بنسبهم إلى الأنصار؛ فقد جعل الشعراء في ذلك ملمحاً مهماً عند تناول مآثرهم، فراحوا يمجدون هذا النسب ، فبرزت اللغة التي تستفيد من الآيات القرآنية التي خصت الأنصار؛ فذكرت حسن فعالهم وجهادهم وبذلهم ونصرتهم للرسول(ص)، فمن ذلك قول ابن الخطيب في معرض مدحه لأبي الحجاج يوسف الأول مشيداً بسلالة الأنصار كونهم من أصحاب النبي الكريم:

([1]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 225.

([2]) سورة الانشقاق، 6.

([3]) ابن جابر الأندلسي، نظم العقدين في مدح سيد الكونين ، 83.

([4]) آل عمران، 106-107.

لِلَّهِ قَوْمُكَ آلُ نَصْرٍ وَالْقَنَا قِصَدٌ وَأَجْسَامُ العِدَى أَشْلاءُ
الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ يَوْمَ المُلْتَقَى وَالْمُطْعِمُونَ إِذَا عَدَتْ شَهْبَاءُ
سِيمَاهُمُ التَّقْوَى أَشِدَّاءٌ عَلَى الْ الكفّار فِيمَا بَيْنَهم رُحَمَاءُ[1]

فقد استفادت لغة الشاعر من قوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[2].

وهذا ما نجده عند الشاعر علي ابن أحمد الخشني في مدحه بني نصر، فقد اقتبست لغته من الآية الكريمة التي خصت الأنصار؛ فذكرت إيثارهم وكرمهم، وتفانيهم في حب الرسول الكريم الذي هاجروا معه؛ إذ يقول:

إذ تؤثرون سواكم قالت بذا آي الكتاب فمن يرد مقالها[3]

فالشاعر يشير إلى قوله تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[4].

وقد أراد من وراء ذلك الإشارة إلى أن الممدوح يمثل استمراراً لتلك المآثر التي ورثها عن أجداده.

وقد استفاد ابن زمرك من الآية نفسها في سياق مدح الغني بالله، عندما قال:

أبناء أنصار النّبيّ وصحبه في الذكر أصبح فخرهم مذكورا
والمؤثرين وربّنا أُنى بها في الحشر خلّد وصفهم مسطورا[5]

وتبرز الاستفادة من المعجم الديني في قصائد المدح في هذا العصر، عندما يسجل الشاعر موقفاً سياسياً فرضته ظروف العصر السياسية، فيعتمد على الحجة القرآنية في تشكيل موقفه،

([1]) ابن الخطيب، لسان الدين، ديوان الصيب والجهام،233.
(2) سورة الفتح، 29.
([3]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 4/ 153.
([4]) سورة الحشر، 9.
([5]) ديوان ابن زمرك، 412.

فتبرز المفردات القرآنية في لغة البيت الشعري، وهذا ما نلحظه في قول لسان الدين بن الخطيب في قوله:

وقدْ جنَحوا للسِّلْمِ فاجْنَحْ تفضُّلاً فَما مِنْهُمُ عيْنٌ منَ الرُّعْبِ تطْرِفُ[1]

فالاقتباس من قوله تعالى: ((وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...))[2] واضح بيّن في هذا البيت، الذي أراد به الشاعر تعزيز النصيحة بالميل إلى السلم إن جنح الأعداء له.

ولم يقتصر اقتباس الشعراء على القرآن الكريم، وإنما تجاوز إلى الحديث النبوي الشريف لما يشكله الحديث النبوي من أهمية دينية ولغوية، فقد أعطي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم.[3] فبرزت في لغة الشعراء المفردات المستمدة من الحديث الشريف، فهذا الشاعر ابن زمرك يستلهم من الحديث النبوي الشريف (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[4] مقتبساً منه ما يغني معانيه المدحية، حين نقل رسالة الغني بالله لبني مرين طالباً مساعدتهم على أعدائه، يقول:

بث الضمير إلى الضمير محبة بصميم قلب في الخلوص مقلب

ما ضرنا إذ كنت أكرم شاهد فيحوز فضل قرابة بتقرب

أرواحنا متجندات تلتقي بتعارف وتآلف وتحبب

لله روض من خلوصك مثمر داني القطاف على روي المشرب

إن لم يكن رحم الولاد فإنه رحم الوداد وحبذا من منسب[5]

([1]) ديوان الصيب والجهام، 624.

([2]) الأنفال، 61.

([3])نص الحديث في صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت256هـ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987م، 6/ 2573، وصحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت261هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 372/1.

([4]) صحيح مسلم، 2031/4.

([5]) ديوان ابن زمرك، 163.

فقد وظّف الشاعر جزءاً من مفردات الحديث في أبياته ليوضح الجانب الإيجابي من تآلف الأرواح ثم تعارفها، وهو ما يتناسب وغرض الشاعر في خطب ود الممدوح وتقوية رابطة الوداد والمحبة وهو ما أفصح الشاعر عنه في البيت الأخير.

ومن ذاك القبيل، ما نقرأه عند ابن الخطيب في مدح السلطان أبي الحجاج بن نصر:

(مطلُ الغني ظلمٌ) ففيم ظلمتني؟ ولوَيت ديني عن وجُود يسار[1]

فقد وظف الشاعر الحديث النبوي الشريف (مطل الغنيّ ظلمٌ)(2) عند معاتبته السلطان على تأخره في تقديم الأعطيات له، فالشاعر يستفيد من البلاغة العالية الكامنة في الحديث النبوي الشريف، ويوظفها في سياق المدح، في سبيل تقوية حجته في طلب عطايا الممدوح من الشاعر في إيصال حجته، فيؤكد أن الممدوح كريم لا يليق به التأخر في العطاء على الشاعر، فالشاعر يستعمل بذلك الحجة المقنعة لاستمالة قلب الممدوح ليجود عليه.

ويعمد الشعراء أحياناً في لغتهم المدحية إلى التضمين، من خلال أخذ أبيات مشهورة وإدراجها في قصائدهم، فهذا ابن زمرك يضمّن بيت أبي العلاء المعري، فيقول:

ودونك من نظمي جواهرَ حكمة يفاخرُ منها السحر بالشعر بابلُ
وما هو غلا ذكرُ أوصافِك العلا فتفعل يا مولايَ والعبدُ قائلُ
فتُتلى على الأسماع منها بدائع وتُجلى على الأبصار منها عقائلُ
ولو أنني أدركتُ أعصار من مضى لما قال فيها الشاعر المتخايلُ
وإني وإن كنت الأخير زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ[3]

فالشاعر في هذه الأبيات يفتخر بقصيدته المدحية، فيجعل من معانيها جواهراً نفيسة تقترب من السحر في بلاغتها، ويرى أن الممدوح هو المحرّض على هذا النظم الساحر بما حمل من سجايا وصفات تلهم الشعراء، وتجعل الممدوح يسمو عالياً بين الناس، وتجعل الشعراء يكتبون فيه القصائد البديعة، ولكي يؤكد الشاعر كل تلك الدلالات لجأ إلى تضمين بيت المعري الذي يقول فيه:

وإني وإن كنت الأخير زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ[1]

([1]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 368.

([2]) انظر البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2003، 493.

([3]) ديوان ابن زمرك، 457

وقد يعمد الشعراء إلى تضمين شطر شعري في مدحهم، ومن ذلك قول ابن الخطيب مشيداً بمكارم أبي الحجاج يوسف الأول:

ولازلـت تجنـي النصـر مـن شـجر القنـا وتـدني الأمـاني وهـي شـمس مصـاعب

وتثنـي لعليـاك الركائـب فـي السـرى ولـو سـكتوا أثنـت عليـك الحقائـب [2]

فقد ضمن الشاعر عجز بيته الثاني من قول الشاعر الأموي نصيب بن رباح في مدحه لسليمان بن عبد الملك :

فَعاجوا فَأثنوا بِالَّذي أنتَ أهلِه وَلَو سَكَتوا اِثنت عَلَيكَ الحَقائِب[3]

نلاحظ أن الشاعر قد ضمن الشطر الثاني حرفياً في بيته المدحي، فكرم الممدوح ظاهر جليّ من خلال عطاياه الكثيرة التي عبرت عنها لفظة الحقائب، فكثرتها دليل على سخاء الممدوح، هذا المعنى لفت انتباه ابن الخطيب فوظفه في مدحه لأبي الحجاج.

ويلجأ ابن زمرك إلى التضمين في مدحه، كما نلحظ في قوله:

تعود للفتح المبين عوائدا فلا قطع الرحمن ما كان عودا

وحق على الإسلام ينشد أهله (لكل امرئ من دهره ما تعودا)[4]

فقد ضمن الشاعر في عجز بيته صدر بيت المتنبي في مدح سيف الدولة عندما قال:

لِكُلِّ اِمرِئٍ مِن دَهرِهِ ما تَعَوَّدا وَعادَتُ سَيفِ الدَولَةِ الطَعنُ في العِدا[5]

فالشاعر يؤكد أن لكل امرئ من الناس عادة عرف بها، والعادة التي ميزت سيف الدولة من غيره أن اعتاد النصر في معاركه، واعتاد الناس منه ذلك فلم يعد مستغرباً، ولما رأى ابن

([1]) شروح سقط الزند، لأبي العلاء المعري، تحقيق: لجنة آثار أبي العلاء المعري، بإشراف الدكتور طه حسين، وبتحقيق الأساتذة: مصطفى السقا، عبد السلام هارون، هبد الرحيم محمود، إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، نسخة مصورة عن دار الكتب، 1946، 2/ 525.

([2]) ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، 271.

([3]) شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم، د. داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط1، 1967، 59.

([4]) ديوان ابن زمرك، 133.

([5]) ديوان أبي الطيب المتنبي- ت 354هـ- "الشرح المنسوب للعكبري "،" تبيان في شرح الديوان"، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ جلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1987، 1/ 60.

زمرك أن هذه صفة في ممدوحه، أو أراد أن ينسب إليه تلك الصفة، وجد في شطر المتنبي في مدح سيف الدولة خير ما يعبّر عن ذلك، فضمنه في شعره.

ومن ذلك ما قاله ابن الخطيب عندما أشاد بهيبة ممدوحه عندما يقبل عليه الناس:

فأقْبلَ لا يدري إلى النّجمِ يرتقي أمِ البحر يبغي أم إلى اللّيثِ يدِلفُ [1]

ففيه تعالق مع بيت المتنبي الذي يقول فيه:

وَأقبَلَ يَمشي في البِساطِ فَما دَرى إلى البَحرِ يَمشي أم إلى البَدرِ يَرتَقي[2]

كما ضمن بعض الشعراء في مدائحهم الأمثال العربية القديمة، مستفيدين من معانيها الموجزة و(قلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسر مؤنتها على المتكلم، مع كبير عنايتها وجسيم عائدها)[3] وهذا ما جعلها تحظى بعناية بعض الشعراء، فراحوا يوظفونها ويستلهمون دلالتها بما يتناسب ومعانيهم المدحية، ومن ذلك التضمين قول ابن الخطيب في معرض مدحه لأبي الحجاج يوسف بن الأحمر:

وكلّما عذّلتْكَ النّفْسُ رادِعَةً جعَلْتَ سيْفَكَ فيها يسْبِقُ العَذْلا[4]

فقد ضمّن المثل "سبق السيف العذل"[5] مستثمراً دلالته المختزلة في إبداء الحزم والشدة في بعض المواقف الحاسمة وهو ما تماشى مع المعنى المدحي في كون الممدوح يتسم بالحزم حازماً إذا كان الموقف يتطلب الإقدام والشجاعة.

ومن تضمين المثل أيضاً قول ابن فركون يمدح يوسف الثالث:

هوَ العادلُ الأرضَى هوَ الحَكمُ الذي إذا قسَطَ الأملاكُ في الحُكْمِ أقْسَطا

يَضِلّ مُناويهِ وإنّ يَمينَهُ لأهْدى لطُرْقِ المَكْرماتِ من القَطا[6]

([1]) ديوان ابن الخطيب، 672.

([2]) ديوان المتنبي، 347.

([3]) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري- ت 395هـ- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1964م، 1/4-5.

([4]) ديوان الصيب والجهام، 660.

([5]) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد بن فضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987، 2/97.

([6]) ديوان ابن فركون، تحقيق: د. محمد بنشريفة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1987م: 187.

فالشاعر يضمن المثل "أهدى من القطا" [1] لخدمة معناه المدحي، فقد جعل ممدوحه أكثر دراية وأهدى بمسالك المكرمات ومجاهل طرقها من القطا الذي يضرب به المثل في معرفة المسالك.

وقد يعدل الشاعر في التركيب المعروف للمثل نظراً لمتطلبات النظم والوزن كما فعل ابن الخطيب عندما قال:

مقَامُكَ حيثُ السحب هاميةُ الندى مَقيلٌ لإصباح السُّرى فيه إحمادُ [2]

ففيه إشارة إلى المثل المعروف: (عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرى).[3]

أما الأساليب اللغوية، فقد برزت في القصيدة المدحية أساليب متنوعة خبرية وإنشائية أسهمت في تشكيل المعاني المدحية، لعل من أهمها:

1- أسلوب الاعتراض:

"هو أن يؤتي في الكلام، أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة، أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة زائدة"[4]، ولأسلوب الاعتراض فوائد منها الدعاء، ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر علق بهما، ومنها المطابقة والاستعطاف، ومنها بيان السبب لأمر فيه غرابة ومنها المدح[5]، وقد وصفه ابن المعتز- ت 296هـ- بأنه "من محاسن الكلام" [6].

ولاشك أن لأسلوب الاعتراض فائدة تظهر جلية في إظهار العناصر الجمالية في النص وبما يمنح السياق عمقاً تعبيرياً، بما يؤدي إلى تقوية المعنى وتثبيته في ذهن المتلقي، ولاسيما في

([1]) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ،عيون الأخبار، شرحه وعلق عليه د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 84/2.

([2]) ديوان ابن الخطيب، 272.

([3]) الميداني ، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1959: 1/ 344

([4]) عرفه، د. عبد العزيز(1984)، من بلاغة النظم العربي، تأليف عبد العزيز عبد المعطي عرفه، عالم الكتب، بيروت، ط2، 244/2.

([5]) ابن معصوم، السيد علي صدر الدين المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1969، 137/5-138.

([6]) ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن المعتز، البديع، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: غناصيوس كراتشوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982م: 59.

غرض المديح فهو تأكيد لمعانيه المدحية من خلال الاهتمام بصفات الممدوح وتخصيصه والدعاء له.

ويأتي الاعتراض ليؤكد غاية الشاعر في تقوية المعاني المدحية، و زيادة في إثباتها وترسيخ معانيها لتصبح ملتصقة بشخص الممدوح موقوفة عليه دون غيره، ومن ذلك قول حازم القرطاجني في إحدى قصائده المدحية:

أبانَ سبيلَ الحقّ هديُك بعدما عَفَتْ مثلما تعفو الطلولُ مذاهبه[1]

نلاحظ أن الجملة الاعتراضية "مثلما تعفو الطلول" جاءت لتقوية معنى البيت فالممدوح أبان طرق الحق فلم يعد يعتريها اللبس، بعدما درست كما تعفو الطلول، فجاءت الصورة الاعتراضية على شكل تشبيه موضح لتلك الحالة، فقوّت المعنى وزادته وضوحا وترسيخاً في ذهن المتلقي.

وقد برز هذا الأسلوب في مدائح[2] ابن زمرك فاستعمله الشاعر لتحقيق أغراض عدة منها الدعاء، و القسم، أو لبيان معنى سابق، ومن أمثلة ذلك قوله من قصيدة يمدح بها الغني بالله:

يمدك- مد الله بالطول عمره ويشكر منك الوالد المتفضلا
فبينكما- والله يشهد– وصلة بها الدين للنصر العزيز توصلا[3]

ومنه قوله في الغني بالله:

كَمْ لَيلةٍ – والله يكتبُ أجْرَها- والكفرُ مَحْصُورٌ وجَيْشُكَ يَحْصُرُ[4]

فقد وظّف الدعاء هنا للدعاء للممدوح، وقد يمزج الدعاء بتأكيد صفة في الممدوح، كما نلحظ في قوله مادحاً:

فَوجْهُكَ، زادَ اللهُ وجْهَكَ نَضْرَةً إذا لاحَ يُعْشِي الناظرَ المُتَأمِّلا[5]

فالاعتراض هنا جاء للدعاء، في سياق تأكيد نضارة وجه الممدوح وإشراقه.

([1]) ديوان حازم القرطاجني، 18.
(2)ديوان ابن زمرك، 45، 51، 54، 167، 197.
(3)ديوان ابن زمرك، 52.
(4) ديوان ابن زمرك، 45.
(5)ديوان ابن زمرك،51.

2- أسلوب الاستفهام:

الاستفهام هو طلب الفهم[1] أو "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً" [2] وتعد صيغة الاستفهام من الصيغ المهمة التي يتكئ عليها الشعراء، لما لها من تأثير واضح في تحريك ذهن المتلقي، وتشويقه إلى معرفة الإجابة.

وقد استعمل شعراء قصيدة المديح أسلوب الاستفهام وخرجوا به إلى معان أخرى، يرمي الشعراء من خلالها تأكيد المعاني المدحية. من هنا يعد الاستفهام وسيلة لتحقيق ذلك.

وقد يأتي الاستفهام بحذف الأداة "الهمزة" أو ما تسمى أم الباب [3]، ويمكن أن تحذف من الجملة اعتماداً على السياق، وعلى وجود القرينة (أم) المعادلة ومن ذلك قول عبد الله بن يوسف النجارى [4]- ت 738هـ- يمدح أبا الحجاج يوسف:

ثناؤكم هذا أم المسك نافح وذكركم أم عاطر العنبر الورد [5]

لقد أسهم أسلوب الاستفهام في إثارة ذهن المتلقي، فالشاعر في حالة التباس وتوهم وتساؤل، بين شيئين رائحة المسك العطرة، و ذكر الممدوح والثناء عليه، من هنا يأتي الاستفهام المجازي ليعبر عن هذه الحيرة التي تزيد في جمالية البيت وبلاغته، فليس الغرض من التساؤل هنا انتظار إجابة، بل تقريرها، فالشاعر أراد أن ذكر الممدوح والثناء عليه قد تداخل مع رائحة المسك والعنبر فصارا شيئاً واحداً يصعب التمييز بينهما.

ويتوسل عبد الحق بن محمد بن عطية بن يحيى المحاربي[6] المولود 709هـ- في استفهامه بالأداة "من ذا" الاستفهامية، وهي مركبة من اسم الاستفهام العاقل "من" و"ذا" وتعدان كالحرف الواحد [1] فيقول:

([1]) الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن ت: 739 هـ، التلخيص في علوم البلاغة، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1932م، 153، الحاشية.

([2]) الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت،80.

([3]) مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، 119.

([4]) ترجمته في نيل الابتهاج، 123، الاحاطة، 337/3، وجذوة الاقتباس، 247، نفح الطيب، 240/3، الكتيبة الكامنة، 254 وفيه البخاري بدل النجاري، ولم يشر ابن الخطيب هنا إلى سنة وفاته؛ لأنه توفى في سنة 783هـ أي بعد وفاة ابن الخطيب بسبع سنوات.

([5]) الإحاطة، 340/3.

([6]) ابن الخطيب سنة وفاته ولكنه أشار إلى سنة ولادته.

من ذا يجاريهمُ في كل مكرمة أيشبه البحر في تمثيله الوشلا [2]

نلاحظ هنا أن الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي إلأى غرض بلاغي هو إلى النفي والاستبعاد فالشاعر ينفي ويستبعد استبعاداً مطلقاً أن يضاهي أحد قوم الممدوح أو ينازعهم مجدهم ومكانتهم ، وان من يجرأ على ذلك فإنه لا يفرق بين البحر على سعته وبين مستنقع صغير آسن.

ويعتمد الشعراء على الاستفهام في تحقيق معنىً مدحي يأخذ شكل الحقيقة المطلقة التي لا يدانيها الارتياب؛ فتصبح لذلك حقيقة متفقاً عليها، كما نلحظ في قول ابن الخطيب يمدح أبا الحجاج يوسف:

ألست من القوم الذين إذا انْتَمَوا نمتهم إلى الأنصار غر المناسب [3]

إن اقتران همزة الاستفهام بأداة النفي (ليس) هنا أخرج الاستفهام عن معناه الأصلي وهو التساؤل إلى دلالة أخرى هي التحقيق، فالشاعر بهذا الأسلوب أراد أن يقرر صفة السمو والرفعة ويثبتها في الممدوح وآبائه؛ فهو إذن يستفهم عن أمر لا يطلب الإجابة عنه وإنما يقرر حدوثه ويرسخه في ذهن السامع للدلالة على التعظيم.

وقد يكون الاستفهام، أداة جمالية، في تشكيل معنى طريف يلصق بالممدوح لتغيير مفاهيم جمالية سائدة في العرف البلاغي، ومن ذلك قول ابن زمرك في ممدوحه:

من أين للشمس المنيرة منطق ببيانه دُرُّ الكلام يُفصّلُ

من قاس بالبدر المنير كمالَه فالبدر ينقص والخليفةُ يكمُلُ

من أين للبدر المنير مناقبٌ بجهادها تُنضى المطيُّ الذُّلَّلُ[4]

ففي العرف البلاغي يشبه الوجه المشرق بالشمس، والجمال بالبدر، ولكن الشاعر أراد أن يميز ممدوحه، فجاء بالاستفهام الذي لا ينتظر جواباً، فمن أين للشمس والبدر أن يبلغا ما بلغه الممدوح؟ فأراد أن يقرر أن الممدوح يفوقهما في صفاته وسجاياه.

([1]) رأي الفراء "معاني القرآ" يحي بن زيد الفراء، تحقيق محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سجل العرب، د.ت.، 132/3.

([2])الإحاطة في أخبار غرناطة، 435/3

([3]) ديوان الصيب والجهام، 260.

([4]) ديوان ابن زمرك، 470.

وقد يؤدي الاستفهام في السياق المدحي معنى النفي ، كما نلحظ في قول ابن فركون يمدح يوسف الثالث:

وهل هيَ إلا همّةٌ خزْرَجيّةٌ تلوحُ على شُهْبِ السّماءِ سِمائُها
وهل هيَ إلا عَزْمةٌ غالبيّةٌ إذا خفّتِ الأعْلامُ راعَ ثَباتُها
وهل هيَ إلا قُدْرةٌ ناصريّةٌ تُنى البَطشَ منها حِلْمُها وأناتُها
وهل هيَ إلا شيمَةٌ يوسفيّةٌ قَضى صَفْحُها أن أُغْمِدتْ صَفحاتُها[1]

إن الاستفهام في قوله (هل هي) غرضه التقرير، أي تقرير الصفات في الممدوح للوصول إلى منتهى التحديد والتخلص من الشك لدى المتلقي في أن يكون الأمر خلاف ذلك.

وأخيراً نشير إلى ناحية مهمة هي أنه كان لأسلوب الاستفهام حضوره المهم في افتتاحيات القصائد المدحية عند الشعراء لاسيما عند ابن الخطيب، فالشاعر يريد أن يلفت انتباه المتلقي ويشده منذ مطلع قصيدته، يقول ابن الخطيب:

لِمَنْ عَلَمٌ في هضبةِ المُلْكِ خفَّاقُ ؟ أفاقَتْ به من غَشْيةِ الهرجِ آفاقُ [2]

وقد يأتي السؤال في مفتتح المدحة من باب المبالغة من خلال جعل الممدوح رجلاً لا نظير له، كما نلحظ في قول ابن الخطيب:

مَنْ مِثْلُ يُوسُفَ في ٱلمُلوكِ ؟ إذا غَدَتْ تُزْهَى بفَضْلِ قديمها وتصولُ [3]

3- أسلوب النداء:

يعد النداء أسلوباً من أساليب الإنشاء الطلبي، ويقوم النداء على (طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظا وتقديراً) [4].وغالبا ما يخرج أسلوب النداء من معناه الحقيقي، لإفادة معان بلاغية تفهم من سياق الكلام إذ إن (أدبية النداء تأتي عند تخلصه من أصل المعنى ليولد إنتاجية بديلة سواء كان التوليد على مستوى السياق أو على مستوى الصيغة)[5].

([1]) ديوان ابن فركون، 214.

([2]) ديوان ابن الخطيب، 679.

([3]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 496.

([4]) مغني اللبيب، 373/2.

([5]) عبد المطلب، محمد(1997): البلاغة العربيه قراءه أخرى، ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دار توبار للطباعة، القاهرة، ط1: 300.

ويبرز أسلوب النداء في القصيدة المدحية بروزاً واضحاً، إذ يعد أسلوباً مناسباً يفيد منه الشاعر في مخاطبة الطرف الآخر وهو الممدوح.

وقد نوّع الشعراء في استعمال هذا الأسلوب ، فابن الخطيب في مناداته لأبي الحجاج يوسف يناديه نداء القريب، فيستعمل همزة النداء الدالة على ذلك، فيقول:

أيُوسُفُ إنَّ الدَّهْرَ أصْبَحَ وَاقِفاً عَلَى بَابِكَ الْمَأمُولِ مَوْقِفَ تَائِبِ[1]

فالشاعر يستعمل هذا الأسلوب للدلالة على عمق العلاقة التي تربطه بممدوحه. وقد يلجأ الشعراء إلى تكرار أسلوب النداء، ليضفي على المنادى/ الممدوح هالة من العظمة، فيستعمل أداة نداء البعيد، كما فعل ابن زمرك في قوله:

يا من إذا نفحت نواسم حمده فالمسك يحسد طيبها والعنبر
يا من إذا تليت مفاخر قومه فالدهر يملى والمعالي تسطر
يا من إذا جليت محاسن ملكه في مرقب بصر البصائر يبهر[2]

فالشاعر ينزه الممدوح عن أن يشاركه في صفاته المذكورة أحد، فوجد في أسلوب النداء وسيلة تساعده على إبراز تلك المضامين المدحية التي تجعل الممدوح، المنادى في غاية السمو والارتفاع.

وقد يعتمد الشعراء الإكثار من تكرار هذا الأسلوب إمعاناً في المبالغة في إسباغ الصفات الحميدة على الممدوح، كما نلحظ في قول ابن الخطيب:

يا مُلبسي النعمى بأيِّ عبارةٍ أصلُ الثناءَ لمُلككَ المُتَفَضِّلِ
يا مبقيًا رمَقي بفضْلِ حنانه يا مَفْزَعي يا ملجَئي يا موئِلي[3]

فالشاعر يبالغ في استعمال أسلوب النداء، فهو هنا ينادي الممدوح بصفاته وفضائله التي أسبغها عليه، حتى يتخيل المتلقي أنه لولا الممدوح لما كان الشاعر، فالممدوح هو صاحب النعم والأيادي البيض على الشاعر، يحيا بها بفضله، لذلك نرى الشاعر يؤكد عجز العبارات واللغة عن أن تدرك تلك الصفات أو أن تسطيع التعبير عنها، ثم هو صاحب الحنان الفياض، والمفزع الذي يفرغ الناس إليه، وهو الملجأ والمأوى الذي تفضي إليه سبل الشاعر. لقد أسهم أسلوب النداء في نقل كل تلك الصفات، وأضفى عليها مبالغة كبيرة قصدها الشاعر، وأراد إيصالها إلى سامعه.

([1]) ديوان الصيب والجهام، 259.
([2]) ديوان ابن زمرك، 44.
([3]) ديوان ابن الخطيب، 316/1.

4- أسلوب التفضيل:

وهي صيغة صرفية يؤتى بها للتفاضل بين الموصوفين، ويلجأ إليها شاعر المديح الأندلسي لتحقيق غايته في جعل ممدوحه الأفضل في الصفات بين الناس. فقد تأتي أفعل التفضيل عند بعض الشعراء؛ لتفضيل الممدوح دون ذكر المفضل عليه ويغدو الممدوح في هذه الحالة مفضلاً لدى الشاعر على جميع الناس، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر عبد الله بن يوسف النجاري يمدح أبا الحجاج يوسف:

أجل ذكركم أزكى وأذكى لناشق كما أنكم أجلى وأعلى لمشهد[1]

فالممدوح هو الأفضل بين الناس؛ فسيرته العطرة عمت الأفاق و سجايه معروفة بينهم لا يدركها أحد منهم، ولا يستطيعون تجاهلها أو إنكار سبقه فيها.

وقد يستعمل الشعراء (أفعل) التفضيل لتفضيل الممدوح على الملوك الذين هم في نفسها منزلته، على سبيل المبالغة، في صفاته وسجاياه، ومن أمثلته قول ابن فركون يمدح يوسف الثالث:

إذا كنتَ تبغي مَوْرِدَ الجود فاعتَصِم بمن ترْتجي الأمْلاكُ نائِلَهُ الغَمْرا
بأعْلى مُلوكِ الأرض ذاتاً ومَحْتِداً وأرْفَعِهِمْ قدْراً وأشهرهمْ ذِكْرا
بأكْرمَ من يكسُو المَلابسَ قد ضَفَتْ وأشرَفَ من يُمْطي المحجّلة الغرّا[2]

فالتفضيل قائم بين الممدوح وسائر جنس الملوك أقران الممدوح، فالممدوح أفضلهم على الإطلاق بما أوتي من خصال أهلته لأن يكون أعلاهم؛ فهو يتمتع بأصالة النسب وعراقته، بانتمائه إلى الأنصار، كما أنه يتمتع بسجايا ذاتية تتمثل بحنكته وحسن سياسته وتدبيره، وارتفاع قدره وانتشار ذكره بين الناس، كل تلك الصفات والسجايا تجعله يفوق أقرانه الملوك وتعطيه الأفضلية عليهم.

أما ممدوح عبد الكريم القيسي، فهو مفضل على سائر جنسه؛ إذ يقول عنه:

أحسنُ الناس مُحَيّاً ظاهراً وهو من أحسنِهم فيما بَطَنْ[3]

فالممدوح موصوف بحسن خلقه وخلقه كما أنه موصوف بحسن فعاله وأقواله ظاهراً ونقاء سريرته وصدق مودته فيما بطن.

([1]) الإحاطة، 3/ 340.

([2]) ديوان ابن فركون، 106.

([3]) ديوان عبد الكريم القيسي، 186.

وهكذا كانت أسلوب التفضيل وهو الأسلوب المختصر عنصراً مهماً في إبراز أفضلية الممدوح على غيره من الناس والملوك.

وبناء على ما سبق يمكن القول: إن قصيدة المديح الأندلسية في هذا العصر، قد استخدمت الأساليب المتنوعة في سياق طرق المعاني المدحية التي تظهر هيبة الممدوح وجلال قدره.

ويعتمد الشعراء في إظهار معانيهم المدحية على أنواع أخرى من التشبيه، كالتشبيه التام، وهنا يعرض الشاعر كل العناصر المشكلة لصورته(كل أركان التشبيه)، ولا يترك للقارئ سوى تخيل هذه الصورة والاستمتاع بجماليتها، ومن أمثلته قول ابن الخطيب:

كأنّ مَحاميدَ الزّمانِ دَفاتِرٌ وحمْدُكَ تَصْحيحٌ عليْها و تطْريرُ[1]

فالشاعر فصّل في كل عناصر الصورة، فالمشبه في البيت(محاميد الزمان) وكذلك(الحمد) وهما من الأمور العقلية ، حيث شبههما ب(الدفاتر)و(التصحيح و التطرير اللذان عليها) وهي من المحسوسات. فالدفاتر يكتب عليها، ومحامد الممدوح هي كتابة على وتطريز جمالي على صفحات هذه الدفاتر المعنوية.

وقد يحذف الشاعر، لغرض بلاغي وجمالي، من تشبيهاته ركناً من أركان التشبيه المشكّل للصورة، كأن يحذف (أداة التشبيه) وهي الأداة التي تربط بين طرفي الصورة فيكون التشبيه المُفصل، ومنه قول ابن الخطيب:

هوَ السُّحْبُ جوداً والكَواكِبُ همّةً وبدْرُ الدُّجى وجهاً وشمْسُ الضُحى رأيا[2]

فالشاعر هنا يفصل بصفات ممدوحه فيشبهه بالسحب في الجود، وبالكواكب في الهمة أداة التشبيه، فكأنه أراد بذلك المبالغة في وصف ممدوحه وتمكين الصفات فيه، فهو السحب حقيقة، وهو يساويها تماماً في صفة الجود ، وكذلك الأمر بالنسبة لتشبيهه بالبدر والشمس، فلربما رأى أن وجود أداة التشبيه يجعل المشبه في درجة أدنى من المشبه به، لذلك حذفها إمعاناً في تأكيد التساوي بين المشبه والمشبه به في الصفات المشتركة المذكورة.

وتتحقق أقصى درجات التشبيه، عند نقل الشاعر لصفات ممدوحه وسجاياه، في التشبيه البليغ الذي يحذف منه الأداة ووجه الشبه، يقول ابن الخطيب:

([1]) ديوان ابن الخطيب، 403.

(2) ديوان ابن الخطيب، 776.

وجْهُكَ في النّائِباتِ بدْرُ دُجىً لنا وفي المحْلِ كفُّكَ المطَرُ[1]

فالشاعر يجعل وجه الممدوح بدر الدجى، ويجعل كذلك كفه المطر ، فقد وصل التشبيه هنا إلى حد(دعوى الاتحاد بين الطرفين ؛ وعلى دعوى عموم الاشتراك بينهما)[2]. كأن الشاعر هنا يرى أن الجامع بين الممدوح، المشبه، وبين المشبه به، اتحاد في الصفات لدرجة التماهي بينهما، فلا يرى ضرورة للتفصيل بذكر الأداة ووجه الشبه، فهما معروفتان بداهة، فالممدوح هو والبدر سواء، وكفه متماهية مع المطر في وظيفة الجود والكرم، وهذا ما يحاول الشاعر بطريقة فنية أن يوهمنا به.

2-2: الصورة الاستعارية:

هي (نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض؛ وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده أو المبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه)[3] ، ويعرفها عبد القاهر الجرجاني فيقول: (أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفضح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى الاسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه)[4].

وتسهم الاستعارة إسهاماً فاعلاً في تشكيل الصورة الشعرية، ومنحها عمقاً تعبيرياً وبعداً فنياً يثير الخيال، ويوسع من آفاقه الرحبة إذا ما استطاع الشاعر المبدع أن يختار الألفاظ الموحية، ويستخدمها في غير ما وضعت له من معان، لوجود قرينة تمنع إيراد المعنى الأصلي،[5] وقد استخدم الشعراء الأندلسيون الاستعارة بنوعيها التصريحية والمكنية، في تشكيل معانيهم المدحية، فهذا ابن الخطيب يستعين بالاستعارة التصريحية في مدح الغني بالله، فيقول:

بدْراً وما غيرُ الخِلافَةِ هالَةٌ شمْساً وما غيْرُ العَلاء مَدارُ

---

(1) ديوان ابن الخطيب، 404.

([2]) القاضي الجرجاني، محمد علي الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق : د.عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، 1981، 200

([3]) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد اللهبن سهل، ت: 395 هـ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1972: 274.

(4) الجرجاني ،عبد القاهر الجرجاني، ت: 471هـ، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. 67.

([5]) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، 67.

غيْثاً وما غيرُ النّوال سَحابةٌ ليْثاً وما غيرُ الظُّبا أظْفارُ[1]

فاستعمل المفردات المشكلة لاستعارته في غير ما وضعت له في الأصل اللغوي ، فقد وقعت الاستعارات في البيتين السابقين في ألفاظ: البدر ، والشمس ، والغيث ، والليث. فأضمر لفظ المشبه / الممدوح. وصرح بلفظ المشبه به ، فقام المعنى على مشابهه ما في الممدوح من صفات الوضاءة وعلوم المترلة وكرم الممدوح وشجاعته.

وقد يحذف الشعراء المشبه به من صورهم ، ويبقون ما يدل عليه، فتكون الاستعارة المكنية، وقد أفاد ابن الخطيب منها، في قصيدته التي مدح فيها المغاربة وحثهم فيها على الجهاد لإنقاذ الأندلس، فقال:

وَإِذْ بَلَغَ المَاءُ الزُّبَـا فَتَدَارَكُوا فَقَد بَسَطَ الدِّينُ الحَنِيفُ لَكُمْ كَفّا[2]

فالاستعارة واقعة في قوله (بسط الدين كفا) ، إذ جعل الشاعر الدين إنساناً يبسط كفه، فحذف المشبه به وأبقى على ما يدل عليه (بسط)، ويهدف من وراء ذلك إثارة النخوة العربية الإسلامية في نفوس المخاطبين، في سبيل الجهاد والمقاومة.

وقد استفاد بعض الشعراء من الإمكانيات الدلالية الثرة التي تتمتع بها بعض مفردات اللغة فنقلوها من حيزها المألوف إلى حيز الاستعمال المجازي في مدحاتهم، ومن ذلك لفظة (الفلاة) فالمعروف عنها أنَّها مهلكة، لأن المسافر فيها قد يتعرض لشتَّى أنواع المخاطر ومنها الضياع، أو العطش، أو الوحوش، فاستثمر ابن زمرك هذه الأوصاف المعروفة للفلاة، وقال يمدح:

حتى الفلاةُ تقيمُ يوم وردتها سُنَنَ القِرى بتلألُؤ الأنوار

وسَرَتْ عُقاب الجو تهديك الّذي تصطاد من وحشٍ ومن أطيار[3]

فقد تغيرت دلالات هذه اللفظة في السياق المدحي، فاستعار الشاعر لها صفة الإكرام للضيف وهي سنن اعتاد العرب عليها، ونسبها للفلاة، فأضفى على الطبيعةِ من صفات الإنسان الحفاوة والقرى، وجعل هذه الفلاة راعية للممدوح، لأنها أكرمُته باهتدائه فيها، وبالغ في البيت الثاني بأن استعار للطيور صفات الإهداء، واختار منها(العقاب)، وهي من الجوارح المعروفة بالقوة والمنعة، و أخْذِها ما تريد قنصاً، فإذا بها هنا تؤثر الممدوح على نفسها. فأظهر الشاعر عبر

([1]) ديوان ابن الخطيب، 431.

([2]) ديوان الصيب والجهام، ص 628.

([3]) ديوان ابن زمرك،415.

الاستعارة المكنية صفات المهابة والقوة على الممدوح التي لا يخضع لها البشر فقط، وإنما مكونات الطبيعة، في ذلك مبالغة لطيفة في رسم المعنى.

ويعتمد الشاعر في تشكيل صورته على المفردات الدالة على تأثر بالبيئة المشرقية، فيستعير بعض مفرداتها، كما نلحظ في استعاراته مفردة (الخيام) وهي بيوت أهل البادية، لتشكيل معناه المدحي، ومن ذلك قول لسان الدين بن الخطيب يمدح:

إلَى مَنْزِلٍ لِلْمُلْكِ وَالدِّينِ خَيَّمَتْ ... رِكَابُ الْعُلاَ وَالْجُودِ تَحْتَ خِيَامِهِ

مَضَارِبُ عِزٍّ كَالنُّجُومِ مُحِيطَةٌ ... بِأَزْهَرَ مِثْلَ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ[1]

لقد شبه الشاعر العز والرفعة التي نالهما الممدوح بالخيمة العالية العظيمةِ الأطناب دلَّ على علوها وعظمتها أنَّه جعل تحتها العلا والجود، اللذين استعار لهما صفة الإناخة والإقامة في قوله (خيمت) أي أقامت، فشخص العلا والجود وجعلهما ركاب يرحل إلى خيمة الممدوح ويستقران فيها. ثم نقل الصورة للسماء في تشبيه تام في دلالةٍ على علو الشرف ورفعته، فجعل قوم الممدوح نجومًا، وجعله بدرًا أزهر أي منيراً وفي تمامه :أي أن نوره كان مكتملا. لقد تضافرت في هذه الصورة ألوان بلاغية عدة في تشكيل المعنى المراد(استعارة وكناية وتشبيه)، لتقدم المعنى المدحي في أبهى حلة وأجمل صورة.

وقد تؤدي الاستعارة دور التشخيص، عندما يشرك الشاعر الناقة معه في الشوق للممدوح، يقول ابن الخطيب:

تقول لي الأظْعانُ والشّوْقُ في الحَشا ... لهُ الحُكْمُ يمْضي بينَ ناهٍ وآمِرِ

إذا جبَلَ التّوْحيدِ أصْبَحْتَ فارِعاً ... فخيِّمْ قَريرَ العينِ في دارِ عامِرِ[2]

فالأظعان تتكلم في استعارة مكنية لطيفة،وتشترك مع الشاعر في الشوق للممدوح، والرغبة في الوصول إليه، وجعلها تبين عنه وتفصح عما أراد أن يقوله، فاستعار لها من الإنسان صفة التحدث والبيان، وأنطقها وهي لاتنطق.

وفي مثل هذا التشخيص، يقول ابن فركون في سياق المدح:

ما للسُّرَى دعَتِ الرّكابُ حثيثَها ... حيثُ الصَّبا قد نازَعَتْكَ حَديثَها

تُهْدي إليْكَ معَ الصّباحِ تحيّةً ... يَهْدي شَذا الزّهْرِ الأنيقِ بُعوثَها[1]

([1]) ديوان ابن الخطيب، 2/ 573.

(2) ديوان ابن الخطيب، 1/ 427.

فالشاعر ذكر السرى وأراد مسير الرواحل فيه، في دلالة على الاستعجال للقاء الممدوح، ثم شخص الصبا وجعلها تنازع الشاعر الحديث وتجاذبه إياه. ثم جعلها تهدي إلى الممدوح تحية طيبة، وهي في الأصل منبعثة منه.

3-2: الكناية:

أشاد الشعراء في مضامينهم المدحية بصفات الممدوح وخصاله وسجاياه وقوته وشجاعته، واستعانوا لتدعيم هذه الخصال وتثبيتها بأسلوب التلويح الذي تتميز به الكناية؛ فهي (لفظ أطلق وأريد به لازم معناه)[2]، لأنه(لما كنيت عن المعنى زدت في إثباته؛ فجعلته أبلغ وأكد وأشد)[3]، وهو ما نلحظ مثالا عليه عند ابن الخطيب، إذ يقول مكنياً عن شجاعة ممدوحه وهيبته في قلوب أعدائه:

بلغت ملوك الروم عنك مهابة فغدت تمج الريق في لهواتها[4]

فبدلاً من أن يقول الشاعر إن الأعداء أصيبوا بالرعب خوفاً من الممدوح كنى عن ذلك بالحالة النفسية للمرعوب وما يصاحبها من مرارة الريق ونضوبه في الحلوق وهي صورة معبرة جسدت حالة الخائف المعروفة لدى المتلقي.

ويسلك ابن الخطيب مسلكاً كنائياً آخر في إطهار صفات الممدوح من خلال التركيز على الصورة اللونية إذ يقول:

مقاماتهم بيض وحمر قبابهم يرف بها هدى ويشرق إرشاد
تحف بها الجرد العتاق ودونها لباغي القرى نارٌ تشب وإيقادُ[5]

ففي قوله (مقاماتهم بيض) كناية عن طهارة نسب الممدوح، وفي قوله: (حمر قبابهم) كناية عن تميز قومه من غيرهم، وسيادتهم وعلو مكانتهم، وفي قوله (نار تشب) إشارة وكناية عن الكرم الذي يتمتع به هؤلاء القوم، فالنار لا تنطفئ، فضيوفهم الذين يقصدونهم هم كثر لدرجة أن تبقى النار مشتعلة دوماً لإعداد الطعام لهم.

([1]) ديوان ابن فركون، 357.

([2]) صبح، د خلدون، البلاغة التطبيقية، منشورات جامعة البعث، حمص، 2007، 61.

([3]) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: 60.

([4]) ديوان الصيب والجهام، 328.

(5) ديوان الصب والجهام، 407.

ومن الكنايات التي سرت في قصيدة المديح الأندلسية كناية رسوخ العدل والأمن والسلام بين الرعية؛ فقد حرص الشعراء على تأكيد هذه الصفات من خلال الكناية على نحو ما نجد في مدح صالح بن يزيد بن شريف النفري يمدح يوسف الثالث:

تأمن الناس في أيامه ومشوا كما مشى الصاحبان الشاة والنمرُ[1]

فصفة العدل ونشر السلام والأمان بين الناس هي ما يميز ذاك الممدوح، ولما أراد الشاعر تأكيد تلك المعاني في ممدوحه لجأ إلى الكناية من خلال هذه العلاقة غير المألوفة بين الشاة والذئب القائمة على التصالح والتصاحب وكل منهما يرعى دون خوف فلا يعتدي أحدهما على الآخر. هذه العلاقة الجديدة أضحت ممكنة وسائدة في عصر الممدوح لما يتسم به من حزم وقوة في رد الظالمين فانتشار السلام والعدل.

ويجمع ابن فركون بين كنانتي "نور الهدى" "نار القرى" فيقول في شأن ممدوحه يوسف الثالث:

فنورُ الهُدَى للمُجْتَلي غيْرُ آفِلٍ ونارُ القِرَى للمُجْتَدي ليسَ تخْبأُ[2]

يوجز الشاعر في بيته حال ممدوحه كونه نور الهدى يُهتدى بسيرته العطرة ومآثره الحميدة؛ ولذا فهو قدوة صالحة لرعيته يلتمسون طريقه، أما ناره فهي لا تخبو ليلاً أو نهاراً لكثرة من ينزل عنده من المعوزين والفقراء من رعيته وغيرهم.

ومن الكنايات البارزة عن المكان، تلك التي ظهرت في شعر المديح النبوي، حيث يُكنّى عن قبر الرسول(ص) بتراكيب من مثل (مغنى الثرى) كما نلحظ في قول ابن الخطيب:

للّهِ درُّ رَكائِبٍ قَطَعتْ إلى مغْنى ثَراكَ تَهائِماً ونُجودا[3]

فكنى بقوله (مغنى ثراك) عن قبر الرسول (ص) الذي يقصده الحجاج.

ثالثاً: الموسيقا والإيقاع:

يرتبط الشعر ارتباطاً وثيقاً بالإيقاع، فهو أحد الأعمدة المهمة في تشكيله، والإيقاع يتضمن نوعين أحدهما الإيقاع الخارجي ويتمثل في الوزن والقافية، والآخر الإيقاع الداخلي ويتمثّل في

([1]) الإحاطة في أخبار غرناطة، 279/3.

([2]) ديوان ابن فركون، 124.

([3]) ديوان ابن الخطيب، 1/ 352.

الجناس والتكرار ورد العجز على الصدر[1]، وسنتوقف في هذا المبحث عند الإيقاع بنوعيه، لمعرفة كيفية توظيف الشعراء له في غرض المدح.

3-1: الإيقاع الخارجي:

ويتمثل هذا النوع في الوزن والقافية، فالوزن من أبرز العناصر الموسيقية التي تميز الشعر عن النثر، فهو يضفي على موسيقا الشعر نسقاً منسجماً (يتمثل في تلك الفواصل التي تحدثها التفعيلات، ويمكن استشعارها بتوقيعها المنتظم؛ فتحدث وحدات متكررة ينشأ عنها الوزن، ولا يعنى ذلك أن الوزن يمثل قوالب جامدة تصب فيها التجربة الشعرية، أو وعاء يحتوي الغرض، وإنما يمثل أحد أبعاد الحركة الآنية لفعل التعبير الشعري نفسه من اجل خلق معنى يتطابق فيه المسموع والمفهوم)[2]. وقد اعتمد الشعراء في عصر بني الأحمر في قصائدهم المدحية على البحور الطويلة، والجدول الآتي يقدّم لنا إحصائية أجريناها على قصائد المدح عند أبرز شعراء تلك المرحلة والأوزان الأكثر تكراراً:

اسم الشاعر	عدد قصائد المدح المدروسة	القصائد على البحر الطويل	القصائد على البحر الكامل	القصائد على البحر البسيط	القصائد على بحور أخرى
ابن الخطيب	50	23	17	5	5
ابن زمرك	70	27	30	9	4
ابن فركون	68	29	16	10	13
عبدالكريم القيسي	28	10	5	6	7

نلاحظ أن الشعراء في قصائدهم المدحية قد اعتمدوا على البحور ذات الإيقاعية الطويلة، التي تمكنهم من التعبير عن الصفات المدحية التي تقوم على الشرح والتفصيل، وفي مقدمتها البحر الطويل، ثم البحر الكامل ، ثم البحر البسيط. فالبحر الطويل – على ما يرى الدكتور إبراهيم أنيس- (من أوسع البحور انتشاراً وأكثر استعمالاً؛ لأنه طويل النفس وجد فيه العرب مجالاً أوسع

([1]) نافع، د. عبد الفتاح(1985)، عضوية الموسيقى في النص الشعري، الأردن، ط1، 12.

([2]) عصفور، د. جابر(1982)، مفهوم الشعر، المركز العربي للثقافة والفنون، القاهرة، 366.

للتفصيل، ويتناسب مع الأغراض الجدية الجليلة الشأن)[1]، ولعل من أهمها القصائد المدحية. ومن أمثلته قول ابن الخطيب الطويل[2].

وَإِنَّ وِدَادِي فِي الْخَلِيفَةِ يُوسُفٍ	يُكَفِّرُ عِنْدَ اللهِ مَا كَانَ مِنْ ذَنْبِي
سُلاَلَةُ أنْصَارِ الْهُدَى وَحُمَاتُهُ	وَوَارِثُ حِزْبِ اللهِ نَاهِيكَ مِنْ حِزْبِ
مُحَيًّا كَمِثْلِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى	وَكَفٌّ كَمَا حُدِّثْتَ عَنْ وَاكِفِ السُّحْبِ

نلاحظ أن الشاعر لما أراد التفصيل في صفات ممدوحه، اعتمد البحر الطويل فهو يساعده على شرح صفات ممدوحه، وإظهار مشاعره تجاهه، وفي مدح قومه المنحدرين من سلالة الأنصار الذي ناصروا الرسول (ص)، كما ساعدته في تفصيل صفات ممدوحه، الذي يشبه الشمس إشراقاً، ويده كالسحب في العطاء.

أما البحر الكامل فهو يصلح لأي غرض من أغراض الشعر وهو أقرب إلى الشدة منه إلى الرقة[3]، وقد برز كثيراً في وصف انتصارات الممدوحين وقوة جيوشهم، ومنه قول ابن فركون مادحاً[4].

يا مُنجِدَ الأمْلاكِ بالعزْمِ الذي	أبْدَى السّبيلَ لمُنجِدٍ ولمُتْهِمِ
هذي العِدى ترْجو نَدَى يدِكَ التي	هيَ موردُ الظّامي وكنْزُ المُعْدِمِ
لم يجْنَحوا للسّلْمِ إلا بعدَما	ألْقتْ لك الدُنْيا يدَ المُسْتَسْلِمِ
كمْ أمّةٍ أمّتْكَ بعْدَ خِلافِها	لتَنالَ عفْوَكَ تحْفَةً في المَقْدَمِ
فأنَلْتَها من حِلمِكَ النعْمى التي	ظَفِرتْ بهنّ يدُ المُسيءِ المُجْرِمِ
أمَّنْتَها فالقوْمُ بينَ مُهوّنٍ	للخَطْبِ في دَعَةٍ وبيْنَ مُهَوِّمِ

فالأبيات تقدم لنا صورة عن قوة الممدوح، وموقف أعدائه منه، وهيبتهم له، وفرضه السلم عليهم، بعد ما رأوا منه الشجاعة والبأس، وتباري الأمم على نيل عفوه، والحلم الذي يتسم به الممدوح وهو ناجم عن قوة لا ضعف، والأمن الذي نشره بين الناس، نلاحظ أن موسيقى البحر

([1]) أنيس، د. إبراهيم (1965)، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 191.

([2])) ديوان ابن الخطيب،123.

([3]) عتيق، عبد العزيز (د.ت)، علم العروض القافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 95.

([4]) ديوان ابن فركون، 33.

الكامل كانت معبرة عن هذه المعاني التي تتسم بالقوة، متناسبة معها، وهذا ما نلحظه عند ابن زمرك من قصيدة مدح يعظم فيها شأن الممدوح وقوة سطوته[1].

أبناؤهم أبناء نصر بعدهم بسيوفهم دين الإله قد انتصرْ
كم معضل من دائها عالجتَه فشفيتَ منه بالبدار وبالبدِرْ
حتى إذا جحد الذي أوْلَيْته لم تُبق منه الحادثات ولم تذَرْ

فقد اعتمد الشاعر موسيقا البحر الكامل لتكون الحامل لهذه المعاني الدالة على قوة ممدوحه وسطوته.

أما البحر البسيط فكان في المرتبة الثالثة في القصائد المدحية ونسبته قليلة مقارنة مع البحرين السابقين، وهذا عائد إلى أنه يتناسب مع الأغراض الرقيقة ذات العواطف المحتدمة[2].

ومن العناصر المهمة المشكلة للإيقاع في الشعر، القافية وهي شريكة الوزن، وتعمل القافية على ضبط موسيقى النص الشعري كما تعطى للقصيدة (بعداً من التناسق، والتماثل يضفي عليها طابع الانتظام النفسي، والموسيقي، والزمني[3])، وقد قدمت تعريفات عدة للقافية، فالأخفش (215هـ) يعرفها بأنها(الكلمة الأخيرة من البيت)[4]. ويرى ابن رشيق أن (القافية قد تكون كلمة، أو بعض كلمة أو كلمتين)[5] ، ويرى ابن طباطبا العلوي وجوب اختيار الشاعر للقوافي التي توافقه، بينما اشترط قدامة أن تكون القوافي عذبة الحروف وسهلة المخارج[6]. ويعد حرف الروي في نهاية البيت الشعري من أكثر حروف القافية بروزاً من الناحية الموسيقية ولموقعه في آخر البيت الشعري، فهو الضابط الإيقاعي له ولما يحققه من انسجام موسيقي في كل أبيات القصيدة، من هنا سنتوقف عنده في حديثنا عن القوافي، فقد لاحظنا أن أكثر حروف الروي استعمالا في قصيدة المدح في عصر بني الأحمر هي حروف الراء واللام والميم والباء والدال، وفيما يلي

([1]) ديوان ابن زمرك، 411.

([2]) خلوصي، صفاء(د.ت)، فن التقطيع الشعري والقافية، دار الكتب، بيروت، ط3، 68.

([3]) أبو ديب، كمال (1987)، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 13.

(4) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق، ت: 456 هـ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1972: 130/1.

([5]) الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة): كتاب القوافي، عني بتحقيقه د. عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1970، 1.

([6]) ينظر: ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري، محمد زغلول سلام، القاهرة، 11.

جدول يبين حروف الروي وعدد القصائد المدحية التي وردت عليه عند أربعة من شعراء ذاك العصر[1]

الشاعر	روي الباء	روي الحاء	روي الدال	روي الراء	روي العين	روي اللام	روي الميم
ابن الخطيب	7	2	10	8	2	6	3
ابن زمرك	5	5	9	15	6	6	7
ابن فركون	5	5	10	4	6	6	7
عبد الكريم القيسي	2	3	5	3	1	2	4

نلاحظ أن الشعراء قد مالوا إلى استخدام الحروف سهلة المخارج، فسيطرت حروف (الراء والدال واللام والميم والباء والحاء) في حين غابت أو ندر وجود أحرف الروي الحروف التي لا تطرب الاسماع مثل حرف الظاء والطاء والضاد، وربما مسوغ ذلك أن الشاعر كان همه استمالة الممدوح فاختار مخاطبته بأعذب الأحرف في الروي كي تترك صدى حسناً في نفسه، فيرضى عن الشاعر ويجزل له العطاء. وكل شاعر ترك لنفسه ما يروقها من هذه الأحرف فركّز على ما يرى نفسه الأقدر على التعبير به، أو الأكثر تأثيراً في متلقيه، فابن الخطيب ركّز على حروف الدال فالراء فالباء فاللام، في حين نرى ابن زمرك يركز أولا على الراء، ثم اللام فالحاء والميم فالباء، وهكذا بقية الشعراء، فكل منهم يختار روياً يراه أكثر لفتاً للانتباه، وأكثر تطريباً لأذن السامع.

كذلك فإننا لاحظنا أن أغلب الشعراء المذكورين أنفاً قد ركز على القوافي المطلقة، أي التي يأتي في نهايتها حرف الروي متحركاً بإحدى الحركات الثلاث (الضمة والفتحة والكسرة)، وندرت القوافي المقيدة أي التي يأتي فيها حرف الروي ساكناً، وقد برر ذلك أحد الباحثين عندما رأى أن القافية المتحركة تضفي على المعنى أبهة وفخامة لا تحققها القوافي الساكنة[2].

([1]) الجدول شمل العينة السابقة نفسها التي وردت في جدول البحور الشعرية من حيث عدد القصائد

([2]) المجذوب، عبد الله الطيب (1955)، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 71/1.

2-3: الإيقاع الداخلي:

هي الموسيقا التي تعبر عن الحالة النفسية للشاعر وتسهم عناصر موسيقية عديدة في توليدها، وأهمها الجناس: وهو تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى، ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة[1]، وهو مظهر من مظاهر التكرار، ويتطلب الجناس من الشاعر ثروة لفظية وملكة شعرية، وقدرة بيانية و يفيد في خلق تماثل إيقاعي داخل النص، وقد استعان الشعراء الأندلسيون في مدائحهم بالجناس توخيا لإضفاء إيقاع موسيقي داخلي يحد من الرتابة الوزنية الصارمة، فضلاً عن جذب أسماع ممدوحيهم والتأثير فيهم ولفت الانتباه. ومثال ذلك قول ابن زمرك في مدح الغني بالله:

كم من عظائم قد تفاقم أمرها أهوي لها مستحقراً أهوالها
كم راية خلقت بيأس جهاده لكن رأت أسمالها أسمى لها[2]

فظهر الجناس التام في قوله: "أهوى لها" و"أهوالها" فالأولى جملة مكونة من كلمتين أهوى ولها أي أقدم في عزم وشدّه متحديا عظائم الأمور، أما أهوالها الثانية، فتعني مهالك المعركة وفزعها، كما جانس بين "أسمالها" و"أسمى لها" فالأولى تعني الرايات الخلِقة، والثانية مكونة من أسمى بمعنى الرفعة مضافاً إليها كلمة لها العائدة على الأسمال، وقد جاء توظيف هذا الجناس دقيقاً معبراً وملفتاً لانتباه المتلقي للمعنى الذي أراد الشاعر التعبير عنه. و من أمثلة ورود الجناس التام والجناس الناقص معاً قول ابن فركون:

يا مَنْ يشبِّهُ بالغمائِمِ كفَّهُ ما ساجلتْ سُحُبُ الغمامِ سِجالَها
لوْ أُلْفِيت بالشُّهْبِ عارفَةُ النّدى لأنالَها كَرماً وقال أنا لَها[3]

نلاحظ أن الشاعر قد جانس بين "أنالها" الأولى وهي من النوال، و"أنا لها" الثانية وهي مركبة من ضمير المتكلم أنا ولها العائدة على المكرمات، كما جانس جناساً ناقصاً بين "العمائم" و"الغمام"، و"ساجلت" و"سجالها"، فدل ذلك على براعة الشاعر في اختيار ألفاظه التي تعبر عن معناه وتحقق في الوقت نفسه إيقاعاً لطيفاً.

([1]) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 321/1.

([2]) ديوان ابن زمرك، 191.

([3]) ديوان ابن فركون، 116.

وقد أجاد الشعراء في استعمال الجناس الناقص، كما استعانوا به في إضفاء النغم الداخلي، وهو ما اختلف فيه (اللفظان في الهيئة دون الصورة) [1] ومن الجناس الناقص قول ابن زمرك:

شامل فضله جميع العباد شامخ ملكه رفيع العماد
وشح الله فخره بالمعالي رشح الله ملكه بالجهاد[2]

ومن العناصر التي أسهمت في توليد الإيقاع الداخلي في قصيدة المدح **رد العجز على الصدر**، وهو أحد الفنون البديعية التي يلجأ إليها الشاعر ليكسب النص الشعري نغماً داخلياً ويسهم في تنويع مصادر الإيقاع في القصيدة، وهو ضرب من ضروب التكرار، ويكون في موضعين أحدهما يقع في آخر البيت، والأخر إما في صدر المصراع الأول، أو في حشوه، أو في آخره، أو في صدر المصراع الثاني[3]. وهو نمط إيقاعي يسهم في تأكيد المعنى المكرر ، كما يسهم في تقوية المعاني المدحية، ويولّد موسيقية منسجمة في البيت الواحد. ومن أمثلته قول ابن الخطيب:

يؤلّفُ بالحُسْنَى قُلوباً تفرّقَتْ يفرّقُ بالإحْسانِ ما لا يؤلّفُ[4]

فظهر شد البيت من خلال رد العجز على الصدر، وتوظيف ذلك في تأكيد المعنى المدحي وتقويته من خلال إلحاح الشاعر على ترديد بعض الألفاظ التي تحمل دلالات مدحية كالألفة بين الرعية، ومعاملتهم بالحسنى والإحسان في إكرامهم.

ومن هذا اللون ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي، أثناء وصفهِ لجيش الغني بالله حيث يقول:

وَلَرُبَّ ذي بصر حَديدٍ قد غدا يُعْشِيهِ مِنْ لَمْعِ الصِّقَال حَديدُ [5]

فالشاعر يلجأ إلى تكرار كلمة(حديد) الواردة في عجز البيت ويضعها حشوًا في الصدر.

ومن العناصر المهمة التي تسهم في توليد الموسيقا الداخلية ، التكرار وقد يكون للحرف أو الكلمة أو الأسلوب و الشاعر يكرر (الكلمة والكلمتين بلفظها ومعناها لتأكيد الوصف أو المدح أو غيره من الأغراض) (1). وفي التكرار لا يتغير معنى الكلمة المكررة.

([1]) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي، ت: 226 هـ، مفتاح العلوم، ، ضبطه وشرحه الاستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1983: 181.

([2]) ديوان ابن زمرك، 109.

([3]) ينظر: أبو الحسين حازم القرطاجني (684 هـ) ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تحقيق محمد الحبيب خواجة، تونس، 1966: 280، وينظر: الخطيب القزويني(739هـ) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: د. رحاب عكاوي، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2000م: 300.

([4]) ديوان الصيب والجهام، 621.

([5]) ديوان ابن زمرك، 119.

وقد استوفى شعراء قصيدة المديح الأندلسية في مدائحهم معظم أنماط التكرار، كتكرار الحرف، وتكرار الكلمة، وتكرار الجملة. فمن تكرار الحرف قول ابن الخطيب:

سَقَتْ سارياتُ السُّحبِ سَاحَةَ فاسٍ سَوَاكبَ تَكْسُو السَّرحَ حُسْنَ لِبَاسِ
وَ سَارَ بتسْلِيمي لسُدّةِ فارسٍ نَسِيمٌ سَرى للسلْسبيلِ بِكاسِ
سراجُ السُّرى ، شمسُ سما قَبَسُ السَّنا كسا ساطيات الأَسْدِ لِبسَةَ باسِ[2]

فقد تكرر حرف السين في كل كلمة هذا أكسب الإيقاع جمالا وبهاء ، ولعل مرد ذلك إلى أنَّ صوت السين هو صوت مهموس سهل النطق ويزود النص بموسيقية خافتة هادئة تتناسب مع هيبة الممدوح.

ومن أساليب التكرار ، تكرار الشعراء لكلمة معينة للفت الانتباه إليه، و تأكيد المعاني المدحية ومصاحبتها بترنم موسيقي، ومثال ذلك قول ابن الخطيب في ممدوحه:

يَرُومُ بِسَكْبِ الْجُودِ كَسْبَ ثَنَائِهِمْ فَلِلَّهِ مِنْ سَكْبٍ كَرِيمٍ وَمِنْ كَسْبِ[3]

فقد عمد الشاعر إلى تكرار كلمتي (سكب، كسب)، وأثبت لنا الشاعر من خلال تكرارهما صفتي الجود في الممدوح وثناء الناس عليه، وأدى التكرار إلى توليد إيقاعية موسيقية متقاربة . ويمثل التكرار بتقنيته الإيقاعية لفت الانتباه إلى صفة الممدوح المكررة، من خلال الاهتمام بإبرازها، وتأكيد المعنى المقصود الذي يروم الشاعر إثباته، ومن ذلك قول ابن زمرك يمدح:

لك سطوةٌ في رأفةٍ، لك هيبةٌ في رحمةٍ لك ذمةٌ لا تخفر[4]

فقد كرر الشاعر تركيب (لك) ثلاث مرات، والكاف هنا عائدة على الممدوح، هدف التكرار هنا تأكيد دلالة اختصاص الممدوح بالمناقب المثالية، فقد تمتع الممدوح بخصال القوة والرحمة والرأفة، استدعى هذا التكرار تأكيد تلك الخصال، عبر تكرار التركيب الذي ولّد إيقاعية وموسيقية عالية في النص يبرز في الصوت المكرر تلك القيم.

وقد يكرّر الشاعر أسلوب بعينه في أبياته المدحية لتأكيد المعنى، ومن ذلك قول ابن الخطيب:

([1]) الحلي ،صفي الدين الحلي، ت: 752، شرح الكافية البديعية، تحقيق د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مركز البحوث والدراسات، سلسلة إحياء التراث، بغداد 2004م، 134.

([2]) ديوان ابن الخطيب، 735.

([3]) ديوان الصيب والجهام، 336.

([4]) ديوان ابن زمرك، 44.

أيجهرُ بالشكوى وأنت سميعُهُ أيُعلن بالنَّجوى وأنتَ عليمُهُ
أتُعوزُه السُّقيا وأنتَ غياثُهُ أتُثْلِفُه البَلوى وأنتَ رَحيمُهُ[1]

فقد كرر الشاعر أسلوب الاستفهام ، لتأكيد المعاني وأسهم هذا التكرار في توليد إيقاعية متوازنة في الأبيات. ومن هذا ما جاء في مدح ابن زمرك للسلطان الغنيّ بالله حيث يقول:

مِنْ أينَ للشمس المنيرةِ منطقٌ ببيانهِ دُرُّ الكلام يفصَّلُ
مِنْ أينَ للشمس المنيرةِ راحة تسخو إذا بخل الزمانُ المُمْحِلُ
مِن أينَ للبدر المنير شمائلٌ تسري بريّاها الصَّبا والشَّمألُ
مِن أينَ للبدر المنير مناقبٌ بجهادها تُنضى المطيُّ الزُّلَّلُ[2]

الأبيات تقدم لنا تكرار الأسلوب وتكرار الجملة، فقد كرر الشاعر أسلوب الاستفهام في أبياته للإشارة إلى أن الممدوح لا مثيل له ولصفاته بين البشر، فقد تميز عنهم، وما تكراره للجملة نفسها (من أين للشمس المنيرة) ثم جملة (من أين للبدر المنير) إلا تأكيد على ذلك المعنى، أسهم هذا التكرار في توليد إيقاع يعبر عن انفعالات الشاعر، وينقلها إلى القارئ.

ومن العناصر التي تسهم في تشكيل الإيقاع الداخلي في القصيدة المدحية نتوقف أخيراً عند الطباق، وهو الجمع بين الشيء وضدّهِ، أو بين معنيين متقابلين في الجملة[3]، وحاول الشعراء من خلال استخدامهم لهذا اللون من البديع، أن يظهروا الشيء من خلال ضده، وأظهر الشعراء في هذا العصر براعة في الوصول إلى ما يريدون، والمتتبع لأشعار ابن الخطيب يرى عنايته بهذا اللون الإيقاعي، فهو يعطي الفكرة مكتملة المعالم من خلال عبقريةٍ نافذة، في الجمع بين هذه الأضداد فنراهُ يمدح الغنيّ بالله قائلا:

فمَنْ استجار عُلاكَ عزّ جوارُهُ وعزيزُ قومٍ، لم يُطعْكَ، ذليل[4]

فالشاعر في هذا البيت، يمدح الغنيّ بالله من خلال بيان أن الطاعة لهذا الملك واجبةٌ على الجميع، ومن لم يطعهُ، سيؤول في النهاية ذليلا وإن كان عزيزًا في قومهِ.فتناغمت كلمتا (عزيز وذليل) في إظهار المعنى، وكما يقال الضد يظهر حسنه الضد.

([1]) ديوان ابن الخطيب، 550.
([2]) ديوان ابن زمرك، 99-100.
([3]) الخطيب القزويني، الإيضاح في علو م البلاغة، 477.
([4]) ديوان لسان الدين بن الخطيب، 2/ 487.

الخاتمة والنتائج

وفي خاتمة المطاف مع قصيدة المديح في الأندلس في عصر بني الأحمر، يهمنا تأكيد النتائج الآتية:

أولاً: على صعيد المديح النبوي في عصر بني الأحمر يمكن أن نستنتج أن هذا المديح قد اعتمد بناء فنياً سار فيه على نهج القصيدة التي عرفت في المشرق والمغرب، وقد اتسم بصدق العاطفة، وبالحب العظيم للرسول صلى الله عليه وسلم، لنيل رضاه وشفاعته، وقد تضمنت قصيدة المدح النبوية كثيراً من الأحداث التاريخية التي مرت بها السيرة النبوية العطرة، فصورتها تصويراً يكاد يكون أقرب إلى السرد التاريخي الحقيقي من دون مبالغات أو إضفاء خيالي، بخلاف القصائد التي كانت توجه إلى الممدوحين الآخرين التي ألفناها في شعر المشرق والمغرب التي كانت تجعل من المبالغة والخيال وسيلة في بناء النص الشعري.

ثانياً: على صعيد مديح السلاطين والحكام في عصر بني الأحمر، يمكن أن نلاحظ أنه ظل في قالب الصور التقليدية التي بقيت في إطار إسباغ الصفات على الممدوح كما حددها النقاد، وهي في مجملها تصب في خانة الشجاعة والكرم ونشر العدل، وهزيمة الأعداء، لكن المعنى المضاف تجلى في إسباغ الصفات الدينية على آل نصر انطلاقاً من نسبهم، ونصرتهم للإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جعل الشعراء يتوقفون دوماً عند هذا النسب ويكررونه في مدحهم لسلاطين بني الأحمر .

ثالثاً: برز إلى جانب مدح الملوك في عصر بني الأحمر مدح وزرائهم وقادة جيوشهم، فالشعراء يحرصون على الوصول إلى أصحاب النفوذ والمال، ولهذا نرى العديد من القصائد المدحية في وزراء شغلوا مناصب مهمة في الدولة، والعديد التي مجدّت بطولات قادة الجيش، سيطرت عليها معاني الشجاعة والبطولة، وقد برز في هذا العصر مدح العلماء والإشادة بفضلهم على الأمة، والإشادة بعلمهم، وبصداقتهم، كما برز في هذا العصر مدح القضاة، والإشادة بما يتمتعون به من عدل و رجاحة عقل.

رابعاً: لما كان لكل غرض شعري معجمه، الذي يمثل مفتاح القصيدة الذي به تعرف هويته؛ فإن قصيدة المديح الأندلسية لها معجمها، وقد انعكس ما شهدته المرحلة النصرية من كثرة الحروب والمواجهات على معجم الشعراء في ذاك العصر، فقد سبب ذلك طغيان مفردات معينة على المعجم المدحي، لعل في مقدمتها الألفاظ المستمدة من مجال الحرب وما يندرج تحته من ألفاظ أخرى. كما برزت اللغة التي تستفيد من الآيات القرآنية التي خصت الأنصار؛ فذكرت

حسن فعالهم وجهادهم وبذلهم ونصرتهم للرسول(ص) . كما استفادت لغة هذا المعجم من خلال التناص والتضمن من لغة الحديث الشريف والمثل.

خامساً: وظّف الشعراء أساليب متعددة في سبيل التعبير عن المعنى المدحي المراد التعبير عنه، ولعل من أهمها: أساليب الاعتراض، والاستفهام، والنداء، والتفضيل، وغيرها، وقد أسهم كل أسلوب في تأدية أغراض بلاغية متنوعة.

سادساً: وقد أجاد الشعراء في عصر بني الأحمر في توظيف الصورة الشعرية، وقد تنوّعت الصور التي استخدموها في إظهار الصفات المدحية. ولعل من أبرزها:

الصورة التشبيهية، إذ أسهم التشبيه بصوره المختلفة في رسم كثير من صور قصيدة المديح الأندلسية، فقد عمد الشاعر الأندلسي في قصيدته المدحية إلى استعمال كل أشكال التشبيه (تمثيلي، بليغ،...) في تقديم معناه المدحي.

والصورة الاستعارية والصورة الكنائية اللتان أسهمتا إسهاماً فاعلاً في تشكيل الصورة الشعرية، ومنحها عمقاً تعبيرياً وبعداً فنياً يثير الخيال.

سابعاً: في الجانب الموسيقي لاحظنا أن الشعراء في عصر بني الأحمر قد اعتمدوا في قصائدهم المدحية على البحور الطويلة، ربما لقدرتها على استيعاب أكبر قدر من المعاني المدحية، ولما تتصف به من رصانة إيقاعية تتناسب مع مدح الخلفاء والقادة ورجال المجتمع، بعكس الأبحر القصيرة و المجزوءة التي تغلب عليها الإيقاعية العالية والسريعة التي لا تناسب أجواء المدح.

وعلى صعيد القافية نلاحظ أن الشعراء قد مالوا إلى استخدام الحروف سهلة المخارج، فسيطرت حروف (الراء والدال واللام والميم والباء والحاء) في حين غابت أو ندر وجود أحرف الروي التي لا تطرب الاسماع مثل حرف الظاء والطاء والضاد، وربما مسوغ ذلك أن الشاعر كان همه استمالة الممدوح فاختار مخاطبته بأعذب الأحرف في الروي كي تترك صدى حسناً في نفسه، فيرضى عن الشاعر ويجزل له العطاء.

المصادر والمراجع

المصادر:

الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، **كتاب القوافي**، عني بتحقيقه، عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1970.

ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ت: 807: نثير **فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي،ت256هـ **صحيح البخاري**،ط3، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، 1987. (ورجعنا إلى طبعة ثانية بتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2003.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت: 779هـ، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ط4 ، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.

ابن البلفيقي، أبي البركات ابن الحاج البلفيقي، **شعر أبي البركات ابن الحاج** جمع: عبد الحميد هرامة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 1996.

التنبكتي أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، (المتوفى: 1036هـ)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، ط2، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا.

الثالث، يوسف، **ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث(أبو الحجاج)** ط2، ،تحقيق: عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965.

ابن جابر الأندلسي، محمد بن أحمد بن علي ت 780هـ ،2005، **نظم العقدين في مدح سيد الكونين**، ط1، تحقيق: أحمد فوزي الهيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت: 255 هـ،1938، **كتاب الحيوان**،ط1،تحقيق: وشرح عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، ت: 471هـ، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن جعفر، قدامة، 1979، **نقد الشعر**،ط3، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الحميدي، أبو عبد الله، محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، 2008، **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، المحقق: بشار عواد معروف - محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي.

الحلي، صفي الدين الحلي، ت: 752،2004، **شرح الكافية البديعية**، تحقيق: رشيد عبد الرحمن العبيدي، مركز البحوث والدراسات، سلسلة إحياء التراث، بغداد.

ابن خاتمة، ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، 1978، **ديوان ابن خاتمة** تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الحكمة، بيروت.

الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن ت: 739 هـ،**1932**، **التلخيص في علوم البلاغة**، ط2،تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ،1974، ط1، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي.

ابن الخطيب، لسان الدين، 1966، **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، 1973، **ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام**، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.

ابن الخطيب، ،1989، **ديوان لسان الدين بن الخطيب**،ط1، صنعه وحققه وقدم له: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء.

ابن خلدون، عبد الرحمن،1999، **تاريخ ابن خلدون**، ط1،ت :تركي فرحان المصطفى بيروت : دار إحياء التراث العربي.

ابن خلدون، 1979، **التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن رباح، نصيب، 1967، **شعر نصيب بن رباح**، ط1، جمع وتقديم: داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد.

ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق، ت: 456 هـ 1972، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.

ابن زمرك، 1997، **ديوان ابن زمرك**، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي، ت: 226 هـ، **مفتاح العلوم**، ط1، ضبطه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت.

ابن طباطبا العلوي ت: 322 هـ، 1956،**عيار الشعر**، تحقيق: طه الحاجري، محمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت: 395 هـ، 1972، **جمهرة الأمثال**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1964.

العسكري، أبو هلال، **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**،ط1، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

أبو العلاء المعري، لأبي العلاء المعري 1946 ،**شروح سقط الزند**، تحقيق: لجنة آثار أبي العلاء المعري، بإشراف طه حسين، وبتحقيق: مصطفى السقا، عبد السلام هارون، هبد الرحيم محمود، إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، نسخة مصورة عن دار الكتب.

الفراء، يحيى بن زيد الفراء، **معاني القرآن**، تحقيق محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سجل العرب، د.ت.

ابن فركون، 1987، **ديوان ابن فركون**، ط1،تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة، المغربية، المغرب.

القاضي الجرجاني، محمد علي الجرجاني، 1981، **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة** تحقيق: عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة.

ابن قتيبة،1985، **الشعروالشعراء**،ط2،تحقيق مفيد قمحية، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **عيون الأخبار**، شرحه وعلق عليه مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.

القيسي، عبد الكريم،1988، **ديوان عبد الكريم القيسي** (توفي في القرن التاسع)، تحقيق: جمعة شيخة، محمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس.

الماوردي،1978، **قوانين الوزارة**،،ط2، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ومحمد سليمان داود، مؤسسة شبان الجامعة، الإسكندرية.

الفيكونت دوشاتو،1991، **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**، ط1، حسين مؤنس.، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي.

المتنبي، أبو الطيب،1987، **ديوان أبي الطيب المتنبي**- ت 354هـ- **"الشرح المنسوب للعكبري تبيان في شرح الديوان"**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ جلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

المراكشي، عبد الواحد،1963م، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، ت261هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن المعتز، 1982م، **البديع**، ط3، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: غناصيوس كراتشوفسكي، بيروت، دار المسيرة.

ابن معصوم، السيد علي صدر الدين المدني، 1969، **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني ت: 1041هـ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت.

المّقري، أحمد بن محمد ،1939، **أزهار الرياض في أخبار** عيّاض، تحقيق :مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

ابن منقذ، أسامة،1960، **البديع في نقد الشعر**، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد ومراجعة: إبراهيم مصطفى، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني، 1959، **مجمع الأمثال**، ط2، تحقيق: محمد بن فضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987 .

وطبعة ثانية بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة.

النَباهي، ابن الحسن، 1995، **تاريخ قضاة الأندلس**، ط1،ت: مريم قاسم الطويل، بيروت، دار الكتب العلمية.

الهاشمي، أحمد، 1362هـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992.

المراجع:

أبو ديب، كمال،1987، **في الشعرية**،ط1، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية.

أنيس، إبراهيم،1965، **موسيقى الشعر**، ط3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

بدوي، أحمد، 1979، **أسس النقد الأدبي**، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

بهجت، منجد مصطفى، 1988، **الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة**، الموصل، مديرية دار الكتب.

الجندي، علي(د. ت)، **فن التشبيه**، القاهرة، مكتبة الأنجلو.

الجيوسي، سلمى الخضراء1998، **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

الحجي، عبد الرحمن علي، 1976، **التاريخ السياسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة**، ط1، بيروت، دار القلم.

الحسيني، قاسم، 1986، **الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري، موضوعاته وخصائصه**، ط1، المغرب وبيروت، الدار العالمية للكتاب.

الحمصي، أحمد، ،1985، **ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه**، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

خلوصي، صفاء، **فن التقطيع الشعري والقافية**، ط3، بيروت، دار الكتب.

الدوسري ، أحمد ثاني، 2004، **الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر**، أبو ظبي، المجمع الثقافي.

دياب، علي، 2003، **في الأدب العربي الأندلسي والمغربي**، منشورات جامعة دمشق.

الذنون، عبد الحكيم، 1988 ،**آفاق غرناطة**، ط1، دمشق، دار المعرفة.

الركابي، جودت، 1966، **في الأدب الأندلسي**، القاهرة، دار المعارف.

زكار، سهيل، كلاس، فايزة 2004 ،**تاريخ الأندلس**، منشورات جامعة دمشق.

صبح، خلدون،2007، **البلاغة التطبيقية**، حمص، منشورات جامعة البعث.

ضيف، شوقي، 1977، **الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور**، القاهرة، دار المعارف.

ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات في الأندلس**، ط2، القاهرة، دار المعارف.

عبد المطلب، محمد، 1997، **البلاغة العربية قراءه أخرى**،ط1، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دار توبار للطباعة.

عتيق، عبد العزيز، **علم العروض القافية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

عرفه، عبد العزيز، 1984،**من بلاغة النظم العربي**،ط2، بيروت، تأليف عبد العزيز عبد المعطي عرفه عالم الكتب.

عصفور، جابر، 1992، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي.

عصفور، جابر،1982، **مفهوم الشعر**، القاهرة، المركز العربي للثقافة والفنون.

عنان، محمد عبد الله، 1949، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، القاهرة، مطبعة مصر.

العنزي، سعد، 2012، **التجليات الحضارية في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

عيسى، فوزي، 2006، **في الأدب الأندلسي**، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية.

القط، عبد القادر،1988، **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، القاهرة، مكتبة الشباب.

مبارك، زكي ، 1935، **المدائح النبوية**، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

المجذوب، عبد الله الطيب، 1955، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**،ط1، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

محاسنة، أحمد توفيق محمد، 1997، **الحياة السياسية في دولة بني الأحمر**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

محجوب، سعاد، 2004، **وصف البيت الحرام في الأدب العربي**، دبي، المجمع الثقافي.

نافع، عبد الفتاح، 1985، **عضوية الموسيقى في النص الشعري**،ط1، الأردن.

النقراط، علي محمد ابن الجياب الغرناطي، **حياته وشعره**، ط1، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

يموت، غازي، 1983، علم **أساليب البيان**، ط1، بيروت، دار الأصالة.

THE ANDALUSIAN PANEGYRIC POETRY IN THE AGE OF BANI AL- AHMAR

By

Raed Awad Ahmed Al Thubaiti

Supervisor

Dr. Hamdi Mansour, Prof

ABSTRACT

Thesis dissertation attempts to study the types of the poem that appeared in the era of Bani al-Ahmar, and to highlight the content values it presented, and to point out the artistic characteristics that emerged in it.

Accordingly, the divided into a Preface and four chapters.

In the Preface, we featured the Political, cultural and social life in that era, then gave an overview of the objectives of praise in Arabic poetry.

This letter examined the prophetic praises, and the praises of rulers, sultans and princes; it also discussed the praise of the leaders, heroes, workers and governors.

The letter then deliberated the technical study. we illustrated language and style, indicating the characteristics of the lexicon of praise and the remarkable styles, then stopped at the poetic image and explained its sources and types and their impact in shaping the meaning of praise.

We finally studied the music in the poem of praise, both internal and external types of music, and their impact on the presentation of the meanings of praise.

The conclusion contained the main findings of the research.